

وَحِوَرَةُ الْحَوْنِ

السنة الثامنة - العدد ٨٧ - ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م

من حديث
القرآن
عن الإنسان

بقلم

د. علي محمد حسن العماري

تصويرها رابطة العالم الإسلامي - مكة المكرمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۖ خَلَقَ
الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۖ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۖ
الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۖ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ

مقدمة

الصلاة والسلام على نبينا محمد سيد الأولين والآخرين وعلى آله وصحبه أجمعين .

أما بعد :

فإن من أحب الأمور إلى المسلم أن ينظر ، ويطيل النظر في كتاب الله تعالى ، أذ يجد فيه راحة النفس ، وطمأنينة القلب ، وشفاء الصدر ، وغذاء الروح .

على أنه من أشق التبعات على الباحث أن يتعرف على مراد الله تعالى من محكم كلامه ، وأن يقول الكلمة الفاصلة ، أو القرينة منها ، أو الشبهة بها في معنى من معانيه .

فالعرب الذين أنزل فيهم القرآن على نبيهم - ﷺ - كانوا من العلم بلغتهم ، والفقه لأسرارها ، والادراك الكامل لمقاصدها ، كانوا من كل ذلك بحيث استطاعوا أن يفهموا آيات القرآن على وجهها الصحيح ، وأن يتذوقوا بيانه الرائع ، ويلموا بمقاصده الحكيمة .

وقد أدركوا - بادية ذى بدء - أنه كتاب السماء ، وأنه فوق قوى البشر وقدرهم ، وكان صحابة رسول الله - ﷺ - يسألونه إذا ندَّ عن أفهامهم شيء من القرآن ، أو يلتمسون معناه في لغات العرب .

أما نحن - وقد مضى على نزول القرآن أربعة عشر قرناً - فقد طال علينا الأمد ، وبعدت الشقة بيننا وبين هؤلاء العرب ، وليس معنا النبراس الذى نعشو إلى ضوئه إذا التبسست المعالم ، وأطبقت الظلمات .

وفي هذه القرون الطويلة طرأ على لغة العرب في ألسنتنا وأذواقنا ما يمكن أن نقرر معه أننا أشبه بالغرباء عنها .

فلسنا مطبوعين على هذه اللغة - وهذا ما لا مجال للشك فيه - ودراستنا لها من ثنايا كتب النحو والبلاغة واللغة وفقهها دراسة نظرية لعلها أن أقامت ألسنتنا على الصواب ، وصانت أقلامنا عن الخطأ لم تقم أذواقنا على نهجها ، ولم تفتح قلوبنا على أسرارها . وقد قال أبو عمرو بن العلاء - وهو من كبار علماء اللغة والنحو في النصف الأول من القرن الثاني الهجري - قال : اللسان الذي نزل به الآن ، وتكلمت به العرب على عهد النبي - ﷺ - عربية أخرى عن كلامنا هذا .

وقد سئل - رحمه الله - عن شعر لامرئ القيس الكندي ، وآخر للحارث الشكري ، فقال : ذهب من يحسن هذا . فإذا قيل هذا في القرن الثاني الهجري ، والعهد بمنايع اللغة قريب فماذا عساه يقال في عصرنا ؟!

لذلك ينبغي أن يفكر ، ويطيل التفكير كل من يتدب نفسه لتفسير شيء من كتاب الله ، أو لاستنباط حكم من بعض آياته ما لم يكن على ثقة من قدرته اللغوية ، وذوقه البياني .

ولهذا - أيضاً - كان جهداً شاقاً - مع ما فيه من متعة وسعادة - أن أكتب بحثاً عن الإنسان في القرآن الكريم ، ولكنني مضيت مستعيناً بالله ، طامعاً في عفوه أن زل القلم ، أو ضل البيان ، أو عثر الفكر .

وبعد أن أجلت النظر ، وأطلت التفكير في أي جانب من جوانب القرآن أكتب شعرت بثلج في الصدر ، وطيب في النفس أن أكتب عن هذا الجانب ، مع أن كل جوانب القرآن حبيبة إلى

النفس ، أثيرة لدى القلب ، متعاطفة مع الضمير والوجدان .
وإنما اخترت هذا الجانب لأن كل الجوانب الأخرى تلتقي معه ،
وتتصل به ، بل أستطيع أن أؤكد - والعلم عند الله تعالى - أن
الإنسان هو المقصود من كل ما جاء في القرآن من إلهيات وغيبات
وتشريعات ، ولكننا عند البحث نفصل بعضها عن بعض لنحدد
الخصائص والسمات لكل قبيل منها .

فقد تحدث القرآن عن الله - سبحانه - وصفاته ، وأورد الأدلة
الحاسمة على وحدانيته وقدرته وعلمه وإرادته ، وتحدث عن البعث
والحساب والجنة والنار والملائكة والجن ، وأوضح أصول الشريعة
وفروعها ، والمقصود من كل ذلك هو تصحيح عقيدة الإنسان
وتهذيب سلوكه وإرشاده إلى الطريق السوي الذي ينتهي به إلى
السعادة في الدنيا والآخرة ، والله - عز وجل - يقول : ﴿ ولقد
كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات
وفضّلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً ﴾ ^(١) .

فإن الله - سبحانه - كرم الإنسان ونعمه ، ووهب له العقل
ليهندي به في ظلمات الحياة ، وأرسل الرسل لتبين له طريق الخير
والشر ، وسخر له الكائنات ليتنفع بها ، وبذلك فضلهم - كما
تصرح الآية على كثير ممن خلق .

وقد كانت هذه الآية - وبخاصة عبارة منها - مثار جدل بين
علماء المسلمين ، إذ استدل المعتزلة - بجانب أدلة أخرى - على
مذهبهم في تفضيل الملائكة على البشر لأن الآية تصرح بأن التفضيل
كان على (كثير) ولم يكن على كل من خلق الله .

(١) سورة الإسراء . الآية ٧٠ .

وقد بلغت حدة الجدل ، وفرط الاعتداء بالمذهب ، بلغت بعالم من علمائهم هو جابر الله الزمخشري أن يخرج عن حد الاعتدال ، وعن عفة الكلمة ، فيرمى خصومه من أهل السنة - عند تفسيره لهذه الآية بآبدة من أوابده كان الأخرى به في علمه وفضله أن يمسك القلم دونها ، وأن يطهر تفسيره منها ومن أمثالها . وقد رد أهل السنة بردود تؤيد - مع أخوات لها - مذهبهم في تفضيل البشر على الملائكة .

من ذلك ما ذكره على بن محمد البغدادي المعروف بالخازن في تفسيره ، قال : «على كثير من خلقنا ظاهر الآية يدل على أنه فضل بني آدم على كثير من خلق لا على الكل ، فقال قوم : فضلوا على جميع الخلائق إلا على الملائكة ، وهذا مذهب المعتزلة ، وقال الكلبي : فضلوا على الخلائق كلهم إلا على طائفة من الملائكة مثل جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل وأشباههم ، وقيل : فضلوا على جميع الخلق وعلى الملائكة كلهم .

فإن قلت : كيف تصنع بكثير؟ قلت : يوضع الأكثر موضع الكل كقوله تعالى : ﴿يَلْقَوْنَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾^(١) أى كلهم^(٢) .

وقد أطلال الفخر الرازي في عرض هذه القضية ومناقشتها عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ من سورة البقرة ، وذكر أولاً أن القائلين بأن الأنبياء أفضل من الملائكة هم أكثر أهل السنة ، والقائلين بأن الملائكة أفضل هم المعتزلة ، قال : وهو قول جمهور الشيعة ، وهذا القول اختيار القاضي أبي

(١) سورة الشعراء . الآية ٢٢٣ .

(٢) تفسير الخازن (لباب التأويل في معاني التنزيل) ج ٣ ص ١٨٨ ، ١٨٩ .

بكر الباقلاني من المتكلمين منا وأبي عبد الله الحلبي من فقهاءنا .
ثم ذكر عشرين دليلاً نقلياً واثنى عشرة حجة عقلية على تفضيل
الملائكة وردها جميعاً ، ثم ذكر أموراً عشرة احتج بها من قال
بفضل الأنبياء وذكر الاعتراضات التي وردت عليها ، واعتبر ذلك
آخر المسألة ، وسكت .

غير أن صنيعه واضح في أنه مع أكثر أهل السنة ، فهو حين يرد
أدلة المعتزلة يبالغ في الرد ، وحين يذكر الاعتراضات التي وردت
على الحجج التي ذكرها أهل السنة يوجز ويحمل في أكثرها .
ولنأخذ مثلاً قوله في آية الاسراء التي ذكرتها : (الحجة الحادية
عشرة : قوله تعالى : ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾
ومخلوقات الله تعالى إما المكلفون أو من عداهم ولا شك أن المكلفين
أفضل من غيرهم ، أما المكلفون فهم أربعة أنواع : الملائكة
والإنس والجن والشياطين ، ولا شك أن الإنس أفضل من الجن
والشياطين ، فلو كان أفضل من الملك أيضاً لزم حينئذ أن يكون
البشر أفضل المخلوقات ، وحينئذ لا يبقى لقوله تعالى : ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ
عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ فائدة ، بل كان ينبغي أن يقال :
وفضَّلْنَاهُمْ عَلَى جَمِيعٍ مِّنْ خَلْقِنَا تَفْضِيلًا ، ولما لم يقل ذلك علمنا أن
الملك أفضل من البشر .

هكذا قرر دليل المعتزلة بكل وضوح ، ثم قال في الرد عليه :
(ولقائل أن يقول : حاصل هذا الكلام تمسك بدليل الخطاب ،
لأن التصريح بأنه أفضل من كثير من المخلوقات لا يدل على أنه ليس
أفضل من الباقي إلا بواسطة دليل الخطاب ، وأيضاً فهب أن جنس
الملائكة أفضل من جنس بني آدم ولكن لا يلزم من كون أحد
المجموعين أفضل من المجموع الثاني أن يكون كل واحد من أفراد

المجموع الأول أفضل من المجموع الثاني ، فإننا إذا قدرنا عشرة من العبيد كل واحد منهم يساوى مائة دينار ، وعشرة أخرى حصل فيهم عبد يساوى مائتى دينار والتسعة الباقية يساوى كل واحد منهم ديناراً فالمجموع الأول أفضل من المجموع الثاني إلا أنه حصل فى المجموع الثانى واحد هو أفضل من كل واحد من آحاد المجموع الأول فكذا ههنا .

وأيضاً فقلوه : «وفضلناهم» يجوز أن يكون المراد : وفصلناهم فى الكرامة التى ذكرناها فى أول الآية ، وهى قوله : ﴿ولقد كرّمنا بنى آدم﴾ ، ويكون المراد من الكرامة حسن الصورة ، ومزيد الذكاء ، والقدرة على الأعمال العجيبة ، والمبالغة فى النظافة والطهارة ، وإذا كان كذلك فنحن نسلم أن الملك أزيد من البشر فى هذه الأمور ، ولكن لم قلتم أن الملك أكثر ثواباً من البشر؟! وأيضاً ، فقلوه : ﴿خلق السموات بغير عمد ترونها﴾^(١) لا يقتضى أن يكون هناك عمد غير مرئى ، وكذلك قوله تعالى : ﴿ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به﴾^(٢) لا يقتضى أن يكن هناك إله آخر له برهان فكذلك هنا) .

أى أن ﴿وفضلناهم على كثير﴾ لا يقتضى أنا لم نفضلهم على القليل ، وهذا ما أشار إليه سابقاً بقوله : (تمسك بدليل الخطاب) ، وتقريره - كما قاله فى تفسير آية الإسراء - أن يقال : أن تخصيص الكثير بالذكر يدل على أن الحال فى القليل بالضد . وواضح أن الفخر الرازى لا يقول بهذا الدليل : (التمسك

(١) سورة لقمان . من الآية ١٠ . أما آية الرعد فهى : ﴿الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها﴾ .

(٢) سورة (المؤمنون) من الآية ١١٧ .

بدليل الخطاب) ، وهو مذهب طائفة من العلماء .
وللفخر هنا لفظة لطيفة ذكرها في قوله : (قال في أول الآية :
﴿ولقد كرّمنا بنى آدم﴾) ، وقال في آخرها : «وفضلناهم» ، ولا بد
من الفرق بين هذا التكريم والتفضيل وإلا لزم التكرار .
والأقرب أن يقال : أنه تعالى فضل الإنسان على سائر
الحيوانات بأمور خلقية طبيعية ذاتية مثل العقل والنطق والخط
والصورة الحسنة والقامة المديدة ، ثم أنه تعالى عرضه بواسطة ذلك
العقل والفهم لاكتساب العقائد الحقة ، والأخلاق الفاضلة ،
فالأول هو التكريم ، والثاني هو التفضيل) .

ولابن قيم الجوزية فصل يذكر فيه عناية الله سبحانه وتعالى
بالنوع الإنساني رأيت أن أنقله - على طول فيه - لأنه يتضمن
خلاصة ما يمكن أن يصل إليه الباحث في هذا الشأن .

قال : (اعلم أن الله سبحانه وتعالى اختص نوع الإنسان من بين
خلقه بأن كرمه وفضله وشرفه ، وخلقه لنفسه ، وخلق كل شيء
له ، وخصه من معرفته ومحبه وقربه وأكرمه بما لم يعطه غيره ،
وسخر له ما في سماواته وأرضه وما بينهما حتى ملائكته الذين هم
أهل قربه - استخدمهم له ، وجعلهم حفظة له في منامه ويقظته
وظعنه وإقامته ، وأنزل إليه وعليه كتبه ، وأرسل إليه رسله ،
وخاطبه وكلمه منه إليه ، واتخذ منهم الخليل والكليم ، والأولياء
والخواص والأحبار ، وجعلهم معدن أسرارهم ، وعمل حكمتهم ،
وموضع حبه ، وخلق لهم الجنة والنار ، فالخلق والأمر ، والثواب
والعقاب مداره على النوع الإنساني ، فإنه خلاصة الخلق ، وهو
المقصود بالأمر والنهي وعليه الثواب والعقاب .

فللإنسان شأن ليس لسائر المخلوقات ، وقد خلق أباه بيده ،

ونفخ فيه من روحه ، وأسجد له ملائكته وعلمه أسماء كل شيء ، وأظهر فضله على الملائكة فمن دونهم من جميع المخلوقات ، وطرد إبليس عن قربه ، وأبعده عن بابه إذ لم يسجد له مع الساجدين ، واتخذ عدوا له .

فالمؤمن من نوع الإنسان خير البرية على الإطلاق ، وخيرة الله من العالمين ، فإنه خلقه ليم نعمته عليه ، وليتوارد إحسانه إليه ، وليخصه من كرامته وفضله بما لم تنله أمنيته ، ولم يخطر على باله « ولم يشعره ليسأله من المواهب والعطايا الباطنة والظاهرة ، العاجلة والآجلة التي لا تنال محبته إلا بطاعته ، وإيثاره على ما سواه ، فاتخذ محبوباً له ، وأعد له أفضل ما يعده محب غنى قادر جواد محبوبه إذا قدم عليه ، وعهد إليه عهداً تقدم إليه فيه بأوامره ونواهي » وأعلمه في عهده ما يقربه إليه ، ويزيده محبة له ، وكرامة عليه ، وما يبعده منه ، ويسخطه ، ويسقطه من عينه)^(١) .

ومع كل ما أنعم الله به على بني البشر كما جاء في هذه النقول السابقة ، وفي غيرها ، وهو كثير ، مع كل ذلك قلّ في الناس المؤمنون ، وقلّ في المؤمنين الصادقون « وقلّ في الصادقين الورعون .

بذلك تحدث آيات القرآن الكريم : ﴿ وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ﴾^(٢) . ﴿ وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ﴾^(٣) . ﴿ وقليل من عبادى الشكور ﴾^(٤) . ﴿ إن الإنسان لظلم كفار ﴾^(٥) . ﴿ وإن كثيراً من الخلقاء ليغنى بعضهم على

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ج ١ ص ٢١٠ .

(٢) سورة يوسف . الآية ١٠٣ .

(٣) سورة يوسف . الآية ١٠٦ .

(٤) سورة سبأ . الآية ١٣ .

(٥) سورة إبراهيم . من الآية ٣٤ .

بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم^(١)
 هذا ما أخبر به القرآن الكريم . وهذا هو واقع الحياة ، وحقيقة
 البشر ، ويكفي أن نتأمل عصرنا الذي نعيش فيه ، بل تكفي النظرة
 العابرة ، فكم في الناس المؤمنون وكم في المؤمنين المخلصون
 لإيمانهم ؟ .

ولو استعمل الناس عقولهم « ولو خضعوا لما توحى به
 وجداناتهم لآمنوا جميعاً » ولكن سبقت كلمة الله تعالى : ﴿لأملأن
 جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾^(٢)

هكذا تمت كلمة الله تعالى « وهكذا حق القول منه سبحانه كما
 جاء في سورة السجدة : ﴿ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ولكن
 حق القول مني لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾^(٣) .
 وجهنم لا تشبع : ﴿يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من
 مزيد﴾ (ق : ٣٠) .

والقرآن الكريم يحدثنا - أيضاً - عن الأمم السابقة : وأن أتباع
 الأنبياء كانوا قليلين « ففي قصة نوح عليه وعلى نبيينا الصلاة والسلام
 يقول القرآن : ﴿حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من
 كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن
 معه إلا قليل﴾^(٤) .

وفي قصص الأنبياء الآخرين نجد أن المعاندين للرسول ،
 والمناهضين لدعوتهم هم (الملأ) ، ففي قصة هود - عليه السلام - :

(١) سورة (ص) . من الآية ٢٤ .

(٢) سورة هود . من الآية ١١٩ .

(٣) الآية ١٣ .

(٤) سورة هود . الآية ٤٠ .

﴿قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك في سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين﴾^(١) . وفي قصة صالح عليه السلام - : ﴿قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحاً مرسل من ربه﴾^(٢) . وفي قصة شعيب - عليه السلام - : ﴿قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا﴾^(٣) .

و (الملأ) الكبراء والسادات الذين جعلوا أنفسهم أضداد الأنبياء ... وهم الذين يملأون صدور المجالس ، وتمتلئ القلوب من هيبتهم ، وتمتلئ الأبصار من رؤيتهم ، وتتوجه العيون في المحافل إليهم ، وهذه الصفات لا تحصل إلا في الرؤساء ، وذلك يدل على أن المراد من الملأ الرؤساء والأكابر^(٤) .

* * *

ويجهد نبينا محمد - ﷺ - في دعوة قومه إلى الحق ، ويحرص على هدايتهم إلى الصراط المستقيم ، صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض ، ولكن الله - سبحانه - يهدي من روعه ، ويبين له حقيقة هؤلاء البشر ، يسليه بذلك ويصبره إن لم تتحقق آماله في هداية قومه ، فيقول - سبحانه - : ﴿وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما

(١) . سورة الأعراف . الآية ٦٦ .

(٢) الأعراف . من الآية ٧٥ .

(٣) الأعراف من الآية ٨٨ .

(٤) التفسير الكبير لفخر الدين الرازي ج ١٤ . ص ١٥٠ ط . دار احياء التراث العربي - بيروت .

يفترون»^(١) ثم يقول بعد آيات : ﴿وإن تطع أكثر من في الأرض
يفضلك عن سبيل الله إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا
يخوضون﴾^(٢) .



وأبادر فأقول أن هذا الجانب من القرآن الكريم مترامى
الأطراف ، ممتد الآفاق لا يتسنى الباحث أن يلمّ به في كتاب ، ولا
في عدد من الكتب ، فلا غرو أن يكون القصور طابع هذا
البحث ، وأن يكون الإشفاق والتخوف والحذر مشاعر هذا
الباحث قبل وأثناء وبعد أن يتم بحثه .

وقد كنت ومازلت وسأظل معتمداً على فضل الله وعونه
وتوفيقه « متقرباً إليه - سبحانه - بإخلاص النية ، وسلامة
القلب ، وحب الخير والحق .

هذا « وقد اطلعت على كتابين كلاهما يحمل عنوان : (الإنسان
في القرآن) ، أحدهما للأستاذ محمود عباس العقاد ، والثاني للدكتور
أحمد إبراهيم مهنا .

أما العقاد فقد جعل بحثه كتابين : الأول : الإنسان في
القرآن : والثاني : الإنسان في مذاهب العلم الحديث ، وقد جاء
الكتاب الأول قريباً من ستين صفحة أما الكتاب الثاني فقد استغرق
مائة وخمسة عشرة صفحة « أي أن الكتاب الأول الخاص
بالإنسان في القرآن نصف الكتاب الثاني .

وهذا الصنيع يشعر به اتجاه العقاد من أول صفحة من كتابه إذ
أنه يريد أن يتحدث عن إنسان القرن العشرين فلا غرو أن يعرض ما

(١) سورة الأنعام . الآية ١١٢ .

(٢) سورة الأنعام . الآية ١١٦ .

جاء في القرآن عن الإنسان ، وما تموج به الدراسات الحديثة ، ثم يحدد موضوعه أكثر بما يشعر أن أكثر ما يهمه هو عقيدة إنسان القرآن .

يحدد الاتجاه الأول بقوله في أول فقرة من فقرات كتابه : (إنسان القرآن هو إنسان القرن العشرين ، ولعل مكانه في هذا القرن أوفق وأوثق من أمكنته في كثير من القرون الماضية ، لأن القرون الماضية لم تلجئ الإنسان إلى البحث عن مكانه في الوجود كله . وعن مكانه بين الخلائق الحية على هذه الأرض ، وبين أبناء نوعه وأبناء الجماعة عاعة قة التلاتى يعيش فيها من ذلك النوع . وبين كل نسبة ظاهرة أو خفية ينتمى إليها ، كما ألجأه إلى ذلك كله هذا القرن العشرون ...) .

وهذا الذى قاله الأستاذ العقاد من اضطراب الإنسان إلى البحث عن مكانه في الوجود كله ، وعن مكانه بين الخلائق الحية في هذا القرن العشرين - هو أحد الأسباب التى دفعتنى إلى هذا البحث الذى أقدمه لإنسان القرن العشرين ولكل إنسان يجىء بعد هذا الإنسان .

ويحدد العقاد إتجاهه الثانى بقوله : (إن القرن العشرين منذ مطلعته يعرض العقيدة بعد العقيدة على الإنسان ، ولا نعلم أنه عرض عليها حتى اليوم قديماً معاداً ، أو جديداً مبتدعاً هو أوفق من عقيدة القرآن ، وأوفق ما فيها أنها غنية عن الاختراع والامتحان ، وأنها على شرط العقيدة الدينية من بنية حية ، شملت ملايين الخلق ، وثبتت معهم وحدها في كل معترك زبون ، يوم خذلهم كل قوة يعتصم بها الناس) (١) .

(١) ص ٨ .

وهذان النصان يفسران لنا اقتصار العقاد على جانب محدود من جوانب حديث القرآن عن الإنسان فتراه يعنى كثيراً بما يتصل بمسئولية الإنسان ، الكائن المكلف ، والتكليف والحرية ، وهذه ثلاثة فصول من كتاب يتضمن سبعة فصول ، بل أن بعض هذه الفصول الأخرى تشير فيما تشير إليه إلى ما تضمنته الفصول الثلاثة . ويتكلم عن حقيقة الإنسان وأنه روح وجسد ، ويرى - كما يرى غيره من السابقين واللاحقين - أنه لا ينبغي أن يطنى أحدهما على الآخر ، وأن القرآن أحل الطيبات ، ودعا إلى السعى في سبيل تحصيل العيش ، كما يتحدث عن خلق آدم ويصل من قصته إلى بعض المسلمات العقلية .

ويبقى بعد ذلك موضوع الإنسان في القرآن رحيب الساحة ممتد الآفاق .

وأما الدكتور مهنا فقد كان بحثه أرحب ، وإن لم يعمد إلى التحليل والتعليل والمدركات الفلسفية التي شغلت جلّ بحث العقاد .

جمع الدكتور مهنا الآيات التي غلب على ظنه أنها وحدات متكاملة ، وأنها تمثل جماع قول القرآن في الإنسان ثم بوبها إلى موضوعات جزئية فرعية : خلق الإنسان - طبيعته - وضعه بين المخلوقات - الغاية من خلقه - نهايته - أنواعه بالنسبة للعقيدة - الإيمان والمؤمنون - العلاقات الإنسانية في القرآن - أنبياء الله ورسله - الرسول محمد في القرآن - طريقه القرآن في الدعوة والاقناع - المرأة في القرآن .

وكلها - كما نرى - موضوعات ذوات بال ، ولكنها مع ذلك لم تستوف كل الجوانب التي عاجلها القرآن فيما يتصل بالإنسان .

ومن الحق أن كلاً من الباحثين أجاد وأفاد ، ولكن - كما قلت -
في هذه المقدمة أن الجانب الإنساني في القرآن مترامي الأطراف ،
ممتد الآفاق لا يتسنى لباحث أن يُلمَّ به في كتاب ، ولا في عدد من
الكتب .

من هنا - ولأسباب أخرى - رأيت أن أشارك في هذا الموضوع ،
ولكن على طريقة أخرى ، وأسلوب آخر ، وفي موضوعات غير تلك
التي عرض لها المؤلفان الفاضلان ، وربما اتحد موضوع ولكن تختلف
طريقة تناوله ، كما أنه من الطبيعي أن تلتقي بعض الأفكار الجزئية مع
أفكار أحدها أو معها كليهما ، ولكن هذا الالتقاء لم يكن قصداً ،
وإنما دفعت إليه طبيعة البحث .

والله المستعان أن يهيئ لنا من أمرنا رشداً ، وأن يوفق هذا
البحث المتواضع أن يلمَّ بأطراف من هذا الموضوع ، وأن يجيد
عرضها .

وعلى الله قصد السبيل ، وهو نعم المولى ونعم النصير .

د. علي محمد حسن العماري
مكة المكرمة - جامعة أم القرى

الباب الأول

الفصل الأول

أحسن الحديث

﴿الله نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا - مَثَانِي - تَقْشَعُرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ .
 لعل ما ورد في هذه الآية الكريمة من أجمع ما وُصف به القرآن الكريم ، ومن أروع ما حُدِّث به عنه « ومن أدق ما أبان عن صفاته وسماته .

ومن جليل ما وصف به تأثيره البالغ في قلوب بعض بني الإنسان ، أولئك الذين هداهم الله « وأولئك هم أولو الألباب .
 القرآن كتاب الله تعالى « هو الذى نزل على عبده ورسوله - عليه الصلاة والسلام - وهو - وحده - القادر على تنزيله ، فهو الله الذى لا يعجزه شيء ، ولا يتعاضم قدرته أمر ، ولا تقف دون إرادته إرادة .

ومن شأن كل عاقل يعرف للعقل قدره ، وللحق سموه « وللأنصاف مكانته أن يؤمن بأن هذا القرآن ليس إلّا وحياً من الله لرسوله ، وأنه من الرفعة والسمو ، ومن علو القدر ، ونبل المقاصد بالمكان الذى يعجز لغات البشر عن كشف دقائقه ، وجللاء حقائقه ، إلا بتوفيق من الله وعون ، وأن أهل العلم ، وذوى الفطن فى كل عصر لا يزالون - بما وهبهم الله ما أنار بصائرهم - يطلعون

(١) سورة الزمر - الآية ٢٣ .

ومن الحق أن كلاً من الباحثين أجاد وأفاد ، ولكن - كما قلت -
في هذه المقدمة أن الجانب الإنساني في القرآن مترامي الأطراف ،
ممتد الآفاق لا يتسنى لباحث أن يُلمَّ به في كتاب ، ولا في عدد من
الكتب .

من هنا - ولأسباب أخرى - رأيت أن أشارك في هذا الموضوع ،
ولكن على طريقة أخرى ، وأسلوب آخر ، وفي موضوعات غير تلك
التي عرض لها المؤلفان الفاضلان ، وربما اتحد موضوع ولكن تختلف
طريقة تناوله ، كما أنه من الطبيعي أن تلتقي بعض الأفكار الجزئية مع
أفكار أحدها أو معها كليهما ، ولكن هذا الالتقاء لم يكن قصداً ،
وإنما دفعت إليه طبيعة البحث .

والله المستعان أن يهيئ لنا من أمرنا رشداً ، وأن يوفق هذا
البحث المتواضع أن يلمَّ بأطراف من هذا الموضوع ، وأن يجيد
عرضها .

وعلى الله قصد السبيل ، وهو نعم المولى ونعم النصير .

د. علي محمد حسن العماري
مكة المكرمة - جامعة أم القرى

يناقض نفسه ، أو يضطرب رأيه ، ومن هنا قال بعض نقاد العرب أن الشاعر لا يعيه أن يأتي بالمعنى ونقيضه ، والرأى وضده ، وأن يصور عاطفته اليوم بغير ما صورها به أمس ؛ لأنه إنما يعبر عن واقعه ، والواقع كثيراً ما يتغير ، ويصور مشاعره والمشاعر كثيراً ما تتناقض ، ومن هنا - أيضاً - قال نقاد آخرون أن الشاعر من يجمع بين الدرة والحصاة .

ويؤيد هذا الذى يراه النقاد واقع الآداب على اختلاف اللغات والبيئات ، وتباين الأزمنة والأمكنة .

فإذا ما نظرت فى رسائل بليغ ، أو قصائد شاعر ، أو روايات قصاص بين لك النظر الواعى ، والحس الناقد المرفه ما فى هذه الآثار من اختلاف فى الصياغة أو تناقض فى الآراء ، أو تدافع فى الأفكار ، أو تباين فى تصوير العواطف والأحاسيس .

بل الرسالة الواحدة إذا طالت ، والقصيدة الفذة إذا امتد بها نفس الشاعر ، والخطبة المحيرة إذا أطنب فيها الخطيب . فى كل ذلك تحسّ التباين بين أجزاء الأثر الأدبى ، لا ينكر ذلك إلا مكابر ، ولا يدفعه إلا متعنت ، ولا يحقّ إلا على ذى ذوق مريض .
وقديماً قال الشاعر العربى ، الناقد المؤلف (العقاد الأصمغاني) :
(أنى رأيت أنه لا يكتب إنسان كتاباً فى يومه إلا قال فى غده : لو غير هذا لكان أحسن ، ولو زيد كذا لكان يستحسن ، ولو قدم هذا لكان أفضل ، ولو ترك هذا لكان أجمل ، وهذا من أعظم العبر ، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر) .



أما القرآن الكريم فعن أن نزوله امتد على مدى ثلاث وعشرين سنة « ومع أنه بلغ هذا القدر الذى نعرفه ، ومع تعدد أغراضه

ومن الحق أن كلاً من الباحثين أجاد وأفاد ، ولكن - كما قلت -
في هذه المقدمة أن الجانب الإنساني في القرآن مترامي الأطراف ،
ممتد الآفاق لا يتسنى لباحث أن يُلمَّ به في كتاب ، ولا في عدد من
الكتب .

من هنا - ولأسباب أخرى - رأيت أن أشارك في هذا الموضوع ،
ولكن على طريقة أخرى ، وأسلوب آخر ، وفي موضوعات غير تلك
التي عرض لها المؤلفان الفاضلان ، وربما اتحد موضوع ولكن تختلف
طريقة تناوله ، كما أنه من الطبيعي أن تلتقي بعض الأفكار الجزئية مع
أفكار أحدها أو معها كليهما ، ولكن هذا الالتقاء لم يكن قصداً ،
وإنما دفعت إليه طبيعة البحث .

والله المستعان أن يهيئ لنا من أمرنا رشداً ، وأن يوفق هذا
البحث المتواضع أن يلمَّ بأطراف من هذا الموضوع ، وأن يجيد
عرضها .

وعلى الله قصد السبيل ، وهو نعم المولى ونعم النصير .

د. علي محمد حسن العماري
مكة المكرمة - جامعة أم القرى

على حسب اختلاف هذه الأمور ، فمن الشعراء من يجود في المدح دون الهجو ، ومنهم من يبرز في الهجو دون المدح ومتى تأملت شعر الشاعر البليغ رأيت التفاوت في شعره على حسب الأحوال التي يتصرف فيها ، فيأتى بالغاية في البراعة في معنى فإذا جاء إلى غيره قصر عنه ، ووقف دونه « وبان الاختلاف على شعره » (١) .

قلت : وهذا أحد البراهين الكثيرة على أن القرآن الكريم نزل من السماء ، وأنه ليس من صنع البشر .

والله - سبحانه - نزل القرآن «مثنى» ثنيت وكررت أوامره ونواهي ، ووعد ووعيد ، وزواجه ومواعظه ، وأنباؤه وقصصه ، وهذا ما يؤكد المعاني في أنفس المخاطبين بها ، وهو تذكير لهم كلما فترت عزائمهم عن أداء واجباتهم الدينية ، وتنبية لهم من الغفلة ، وحفز لهمهم على الاستجابة لداعى الهدى ، واستمرار التفور من دواعى الغنى والفضلال .

ثم في هذا التكرار لطائف أخرى . منها إقامة الحجة على العرب ، وتبكيتهم على عجزهم أن يعارضوا القرآن ، فلا يستطيعون أن يقولوا أن التعبير عن المعنى ثانياً بعد أن عبر عنه أولاً لا تجيء صياغته في قوة صياغته الأولى ، وهذا هو القرآن قد أعاد التعبير عن كثير من المعاني فما ظهر فيه ضعف ولا تكلف ولا قصور .

* * *

وأخرى . ذلك أن الكاتب أو الشاعر أو الخطيب حين يعيد أحدهم معنى سبق أن قال فيه يظهر في أسلوبه أثر الصنعة ، وتبعث معانيه على الملل .

(١) ص ٣٦ ، ٣٧ تحقيق الأستاذ سيد صقر - الطبعة الرابعة .

والقرآن الكريم على الضد من ذلك ؛ فقد كررت فيه قصص الأنبياء ، وبعضها بلغ حداً من التكرار يُظن معه أن الأسلوب سيضعف ، أو أن المعاني ستهافت ، ولكن الآيات جاءت في كل مرة بالغة حد الإعجاز ، تخلب الألباب ، وتستولى على العقول ، وتتلج صدر كل صاحب ذوق سليم .

وهذا - ولا شك - وجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم ، وبرهان يؤيد البراهين الأخرى على أنه ليس كما يقول مشركو مكة عن النبي - ﷺ - كما حكى عنهم القرآن : ﴿وقال الذين كفروا إن هذا إلا أفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاءوا ظلماً وزوراً﴾^(١) .

يقول فخر الدين الرازى في تفسيره الكبير (مفاتيح الغيب) عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله﴾^(٢) . يقول : (وأعلم أنه قد اجتمع في القرآن وجوه كثيرة تقتضى نقصان فصاحته ، ومع ذلك فإنه في الفصاحة بلغ النهاية التي لا غاية لها وزاءها ، فدل ذلك على كونه معجزاً) . وبعد أن ذكر الرازى ثلاثة من هذه الوجوه ، قال : (ورابعها : أن كل من قال شعراً فصيحاً في وصف شيء فإنه إذا كرره لم يكن كلامه الثانى في وصف ذلك الشيء بمنزلة كلامه الأول ، وفي القرآن التكرار الكثير ، ومع ذلك كل واحد منها في نهاية الفصاحة ، ولم يظهر التفاوت أصلاً) .

(١) سورة الفرقان . الآية ٤ .

(٢) سورة البقرة ، من الآية ٢٣ .

وبعد أن وصفت الآية الكريمة القرآن وصفاً ذاتياً بينت أثره في قلوب المؤمنين به . وأشارت إلى وقعه على قلوب المعرضين عنه . فالذين آمنوا بين حالين : تارة تستولى على قلوبهم الخشية من الله تعالى ، والرغبة من جلاله ، والخوف من وعيده فتتشعر جلودهم ، وترتعد فرائضهم ، ويملاً الإشفاق قلوبهم ، حين يتلون القرآن أو يسمعون : ﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون﴾ (١) .

﴿فألهكم إله واحد فله أسلموا وبشر المختبين الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم والصابرين على ما أصابهم والمقيمي الصلاة وممّا رزقناهم ينفقون﴾ (٢) .

ونحبرنا القرآن الكريم أن من النصارى من بكوا عند سماع القرآن في سورة المائدة : ﴿لتجدنّ أشدّ الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدنّ أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون . وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع ممّا عرفوا من الحق يقولون ربّنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين﴾ (٣) .

وقد أنكر الله - سبحانه - على كفار قريش أنهم لا يتلقون القرآن بما ينبغي أن يتلقى به من الوقار والخشوع والبكاء : ﴿أفمن هذا الحديث تعجبون وتضحكون ولا تبكون﴾ (٤) .

(١) سورة الأنفال - الآية ٢ .

(٢) الحج . من الآية ٣٤ ، والآية ٣٥ . والمختبون : الخاشعون .

(٣) الأيتان ٨٢ ، ٨٣ .

(٤) سورة النجم . الأيتان ٥٩ ، ٦٠ .

والقرآن الكريم على الضد من ذلك ؛ فقد كررت فيه قصص الأنبياء ، وبعضها بلغ حداً من التكرار يُظن معه أن الأسلوب سيضعف ، أو أن المعاني ستهافت ، ولكن الآيات جاءت في كل مرة بالغة حد الإعجاز ، تخلب الألباب ، وتستولى على العقول ، وتتلج صدر كل صاحب ذوق سليم .

وهذا - ولا شك - وجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم ، وبرهان يؤيد البراهين الأخرى على أنه ليس كما يقول مشركو مكة عن النبي - ﷺ - كما حكى عنهم القرآن : ﴿وقال الذين كفروا إن هذا إلا أفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاءوا ظلماً وزوراً﴾^(١) .

يقول فخر الدين الرازى في تفسيره الكبير (مفاتيح الغيب) عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله﴾^(٢) . يقول : (وأعلم أنه قد اجتمع في القرآن وجوه كثيرة تقتضى نقصان فصاحته ، ومع ذلك فإنه في الفصاحة بلغ النهاية التي لا غاية لها وزاءها ، فدل ذلك على كونه معجزاً) . وبعد أن ذكر الرازى ثلاثة من هذه الوجوه ، قال : (ورابعها : أن كل من قال شعراً فصيحاً في وصف شيء فإنه إذا كرره لم يكن كلامه الثانى في وصف ذلك الشيء بمنزلة كلامه الأول ، وفي القرآن التكرار الكثير ، ومع ذلك كل واحد منها في نهاية الفصاحة ، ولم يظهر التفاوت أصلاً) .

(١) سورة الفرقان . الآية ٤ .

(٢) سورة البقرة ، من الآية ٢٣ .

غماً ، فقرأت : ﴿كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق﴾^(١) . فخر ميتاً .

وقرأ مضر القاريء يوماً : ﴿هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون﴾^(٢) . فبكى عبد الواحد بن يزيد حتى غشى عليه ، فلما أفاق قال : وعزتك لا عصيتك جهدي أبداً ، فأعنى بتوفيقى على طاعتك .

وصدق الله العظيم : ﴿لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأته خاشعاً متصدعاً من خشية الله﴾^(٣) .

* * *

هذه حالة من حالاتي المؤمنين بالله الذين يخشونه ، ولا يخشون أحداً إلا الله .

أما الحالة الأخرى فهي السكينة والطمأنينة ، واستقرار الأنفس ، واستبشار القلوب حين يذكرون رحمة الله التي وسعت كل شيء ، ونعمه التي عمت كل الكائنات ، وأفضاله التي غمر بها الإنس والجن ، فإن جبال الله يتجلى لهم فيستبشرون : ﴿ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله﴾ . ﴿الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾^(٤) .

ولا شك أن أثر القرآن في قلوب المؤمنين ، بل في قلوب المنكرين له أحياناً ، أحد البراهين الحاسمة على أنه من عند الله - سبحانه وتعالى - أنزل .

قال أبو سليمان الخطابي أحد علماء القرن الرابع الهجري (٣١٩ -

سورة الحج - الآية ٢٢ .

(٢) سورة الجاثية - الآية ٢٩ .

(٣) سورة الحشر - الآية ٢١ .

(٤) سورة الرعد - الآية ٢٨ .

والقرآن الكريم على الضد من ذلك ؛ فقد كررت فيه قصص الأنبياء ، وبعضها بلغ حداً من التكرار يُظن معه أن الأسلوب سيضعف ، أو أن المعاني ستهافت ، ولكن الآيات جاءت في كل مرة بالغة حد الإعجاز ، تخلب الألباب ، وتستولى على العقول ، وتتلج صدر كل صاحب ذوق سليم .

وهذا - ولا شك - وجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم ، وبرهان يؤيد البراهين الأخرى على أنه ليس كما يقول مشركو مكة عن النبي - ﷺ - كما حكى عنهم القرآن : ﴿وقال الذين كفروا إن هذا إلا افك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاءوا ظلماً وزوراً﴾^(١) .

يقول فخر الدين الرازى في تفسيره الكبير (مفاتيح الغيب) عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله﴾^(٢) . يقول : (وأعلم أنه قد اجتمع في القرآن وجوه كثيرة تقتضى نقصان فصاحته ، ومع ذلك فإنه في الفصاحة بلغ النهاية التي لا غاية لها وزاءها ، فدل ذلك على كونه معجزاً) . وبعد أن ذكر الرازى ثلاثة من هذه الوجوه ، قال : (ورابعها : أن كل من قال شعراً فصيحاً في وصف شيء فإنه إذا كرره لم يكن كلامه الثاني في وصف ذلك الشيء بمنزلة كلامه الأول ، وفي القرآن التكرار الكثير ، ومع ذلك كل واحد منها في نهاية الفصاحة ، ولم يظهر التفاوت أصلاً) .

(١) سورة الفرقان . الآية ٤ .

(٢) سورة البقرة ، من الآية ٢٣ .

لقد علم الله - سبحانه - في الأزل من يرشده عقله وفطرته إلى
الإيمان فيهتدى ، ومن يعمى عن الحق فيضل ، وقد أوضح لكل
طريق الخير والشر ، وأبان سبيل الهدى والضلال ، وأودع في كل
نفس وجداناً وعقلاً وقدرة وإرادة ، فمن علم - سبحانه - أنه يختار
سبيل الهدى بمحض إرادته أعانه عليه ، ويسر له سلوكه ، ومن علم
أنه يؤثر العمى على الهدى ، والكفر على الإيمان أضله على علم ،
وختم على سمعه وقلبه ، وجعل على بصره غشاوة ، فمن يهديه من
بعد الله ؟!

وهكذا كان القرآن الكريم هدى وموعظة للمتقين ، ووبالاً
وخزياً على الكافرين .

الفصل الثاني

وصف القرآن من آياته

صلة هذه الأوصاف بالإنسان

وقد وضع لنا من النظر في الآية الكريمة التي شرحناها أن وصف القرآن للقرآن جاء على نوعين :

الأول : صفات تبين ذاتية القرآن وحقيقته .

الثاني : أوصاف تبين الأسرار التي من أجلها أنزل (وكلها تتصل بالإنسان) .

فما جاء من النوع الأول وصف القرآن بأنه عري مبین ، وهذا مصداق لقوله تعالى : ﴿ وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم ﴾ ^(١) ، ومحمد - ﷺ - من أوسط العرب داراً ، ومن أكرمهم عشيرة : ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عتم حريصٌ عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم ﴾ ^(٢) .

وقد تردد وصف القرآن بأنه عري في بعض سورته مع اختلاف أزمنة نزولها : ﴿ إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون ﴾ ^(٣) ، وكذلك أنزلناه قرآناً عربياً وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكراً ^(٤) . ﴿ وإنه لتنزيل رب العالمين . نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين . بلسان عري مبین ﴾ ^(٥) . إلى غير ذلك من الآيات التي ورد فيها وصف القرآن بأنه عري .

(١) سورة إبراهيم . الآية ٤ .

(٢) سورة التوبة . الآية ١٢٨ .

(٣) سورة يوسف الآية ٢ .

(٤) سورة طه - الآية ١١٣ .

(٥) سورة الشعراء . الآيات : ١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٥ .

وإنما أنزل القرآن باللغة العربية للسر الذي جاء في سورة إبراهيم ﴿ليبين لهم﴾ .

ولسر آخر هو أن يصح له تحديهم ، ومطالبتهم أن يعارضوه ، وأن يجيثوا إن كانوا قادرين ولو بمثل أقصر سورة منه ، ولو أنه نزل بلغة أخرى لأعطاهم العذر في أن يقولوا إنك تحدثنا بغير لغتنا ، فتسقط حجته .

وقد تعنت كفار قريش - كعادتهم - فقالوا : هلا نزل القرآن بلغة العجم ، فنزل قوله تعالى : ﴿ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فُصِّلَت آياته لأعجمى وعربى﴾ ^(١) .

لقالوا : هلا بينت آياته بلغتنا العربية حتى نفهمه ، وكيف يجيء قرآن أعجمى من رسول عربى ، يخاطب به قومه من العرب ؟ فكان مما يوافق العقل والمنطق ، ويعين الرسول على أداء ما كلف بتبليغه أن ينزل القرآن بلغة قومه العرب . ينذرهم به ، وينذر كل من يمكن أن تبليغه دعوته من الإنس والجن .

ومن الأوصاف التى ترددت في القرآن كثيراً أنه نزل بالحق : ﴿وبالحق أنزلناه وبالحق نزل﴾ ^(٢) . ﴿نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه﴾ ^(٣) ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ ^(٤) .

إلى كثير من مثل هذه الآيات ..

والحق هو سر الحياة ، وقوام الوجود ، وطليعة العقول ، عليه قامت السموات والأرض ، وبه تصلح شئون الكائنات ، فلا جرم كان كتاب الإنسانية نازلاً بالحق « مشتتلاً عليه » مقررأ له ، ولا

(١) سورة فصلت - الآية ٤٤ . (٢) سورة آل عمران - الآية ٣ .

(٣) سورة الاسراء - الآية ١٠٥ . (٤) سورة النحل - الآية ١٠٢ .

الفصل الثاني

وصف القرآن من آياته

صلة هذه الأوصاف بالإنسان

وقد وضع لنا من النظر في الآية الكريمة التي شرحناها أن وصف القرآن للقرآن جاء على نوعين :

الأول : صفات تبين ذاتية القرآن وحقيقته .

الثاني : أوصاف تبين الأسرار التي من أجلها أنزل (وكلها تتصل بالإنسان) .

فما جاء من النوع الأول وصف القرآن بأنه عري مبين ، وهذا مصداق لقوله تعالى : ﴿ وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم ﴾ ^(١) ، ومحمد - ﷺ - من أوسط العرب داراً ، ومن أكرمهم عشيرة : ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عتم حريصٌ عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم ﴾ ^(٢) .

وقد تردد وصف القرآن بأنه عري في بعض سورته مع اختلاف أزمنة نزولها : ﴿ إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون ﴾ ^(٣) ، وكذلك أنزلناه قرآناً عربياً وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكراً ^(٤) . ﴿ وإنه لتنزيل رب العالمين . نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين . بلسان عري مبين ﴾ ^(٥) . إلى غير ذلك من الآيات التي ورد فيها وصف القرآن بأنه عري .

(١) سورة إبراهيم . الآية ٤ .

(٢) سورة التوبة . الآية ١٢٨ .

(٣) سورة يوسف الآية ٢ .

(٤) سورة طه - الآية ١١٣ .

(٥) سورة الشعراء . الآيات : ١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٥ .

بالحق ، وكأن القرآن تحدى العرب أن يعارضوه بمثل أقصر سورة منه مشتملة على الحق ، مع أن مما تحداهم به أن يأتوا : ﴿بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلَهُ مُفْتَرِيَاتٍ﴾^(١) .

وقد وصف القرآن في القرآن بأنه (مصدق لما بين يديه) أى لما سبقه من الكتب السماوية ، وأنه أمين ورقيب عليها ، وبأنه (كتاب عزيز) يمتنع على البلغاء أن يحينوا بمثله ، وأنه لا عوج فيه ولا أمت ، وبأنه كتاب كريم : ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ . وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ . إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ . فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ . لَا يَمْسُهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾^(٢) . ﴿تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٣) .

ووصف القرآن بأن آياته أحكمت وفصلت : ﴿كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فَصَّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾^(٤) . ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغَى حَكْماً وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً﴾^(٥) .

ومعنى إحكام آياته نظمها نظماً متقناً ، لا نقص فيها ولا خلل ، وبراعتها من التناقض ، وبلوغها في الفصاحة والبلاغة والجزالة مبلغاً لا يمكن معه معارضتها .

ومعنى تفصيلها جعلها فصولاً ، حلالاً وحراماً ، ومواعظ وترهيباً ، وأمرأ ونهياً ، ووعداً ووعيداً .

وقد نعى الله عز وجل عن القرآن أن يكون شعر شاعر ، أو قول كاهن ، وكان المشركون قد ادعوا عليه ذلك ، فجاء الرد حاسماً : ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِمَا تُبْصَرُونَ . وَمَا لَا تُبْصَرُونَ . إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ . وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ . وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذْكُرُونَ . تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٦) .

(١) الأحكام ١١٤ .

(٢) الخاتمة ٣٨ - ٤٣ .

(٣) هود . من الآية ١٣ .

(٤) سورة الواقعة ٧٥ - ٨١ .

(٥) هود ١ .

والقرآن الكريم على الضد من ذلك ؛ فقد كررت فيه قصص الأنبياء ، وبعضها بلغ حداً من التكرار يُظن معه أن الأسلوب سيضعف ، أو أن المعاني ستهافت ، ولكن الآيات جاءت في كل مرة بالغة حد الإعجاز ، تخلب الألباب ، وتستولى على العقول ، وتتلج صدر كل صاحب ذوق سليم .

وهذا - ولا شك - وجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم ، وبرهان يؤيد البراهين الأخرى على أنه ليس كما يقول مشركو مكة عن النبي - ﷺ - كما حكى عنهم القرآن : ﴿وقال الذين كفروا إن هذا إلا افك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاءوا ظلماً وزوراً﴾^(١) .

يقول فخر الدين الرازى في تفسيره الكبير (مفاتيح الغيب) عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله﴾^(٢) . يقول : (وأعلم أنه قد اجتمع في القرآن وجوه كثيرة تقتضى نقصان فصاحته ، ومع ذلك فإنه في الفصاحة بلغ النهاية التي لا غاية لها وزاءها ، فدل ذلك على كونه معجزاً) . وبعد أن ذكر الرازى ثلاثة من هذه الوجوه ، قال : (ورابعها : أن كل من قال شعراً فصيحاً في وصف شيء فإنه إذا كرره لم يكن كلامه الثانى في وصف ذلك الشيء بمنزلة كلامه الأول ، وفي القرآن التكرار الكثير ، ومع ذلك كل واحد منها في نهاية الفصاحة ، ولم يظهر التفاوت أصلاً) .

(١) سورة الفرقان . الآية ٤ .

(٢) سورة البقرة ، من الآية ٢٣ .

هذا القرآن الكفاية وما فوق الكفاية ، ألم يعجزهم ببلاغته وفصاحته ؟ ألم يرعهم ما فيه من العلوم والمعارف اللاق لم يكن لهم بها عهد ؟ . ألم يبهرهم أن الذي بلغ هذا القرآن رجل منهم يعلمون أنه لم ينشأ في بيئة علمية ، ولم يكن يقرأ الكتب ؟ ﴿وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه يمينك إذا لا رتاب المبطلون﴾^(١) .

ثاني هذه الأوصاف أن القرآن : ﴿ذكر للعالمين﴾ . وقد ورد هذا الوصف في سورة (القلم) ، وهي ثاني سورة أنزلت من القرآن : ﴿وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون إنه لمجنون وما هو إلا ذكر للعالمين﴾^(٢) .

ملك الغيظ والحق قلوب مشركي مكة حين تلا عليهم النبي القرآن ، واستعرت نفوسهم بنار العداوة ، وامتألت عيونهم بالشر والبغضاء فأخذوا ينظرون إليه نظرات الحاقد المغيظ ، لا تكاد أعينهم تتحول عنه ، وكأنما وثبت قلوبهم فاستقرت في عيونهم ، فكادوا بهذه النظرات السود أن يزلوا قدم الرسول عن موضعها ، وهذا التعبير القرآني من أدق وأبلغ ما تصور به العداوة الحاقدة ، والخصومة المغيظة .

ولم يكتفوا بهذا النظر الشر ، بل سلقته ألسنتهم الحداد بما يعلمون كل العلم أنه منه براء : ﴿ويقولون إنه لمجنون﴾ .

وقد ورد عليهم القرآن الكريم بما لم يكونوا يتوقعونه ، فالقرآن لم ينزل لهم وحدهم وإنما هو ذكر للناس كافة ، فهو كتاب الاسلام ، وليس هذا الدين للجنس دون جنس ، ولا أمة دون أمة ، وإنما هو ﴿للعالمين﴾ .

١- النجم . الآيات ٥١ ، ٥٢ .

٢- العنكبوت . الآية ٤٨ .

ومن الحق أن كلاً من الباحثين أجاد وأفاد ، ولكن - كما قلت -
في هذه المقدمة أن الجانب الإنساني في القرآن مترامي الأطراف ،
ممتد الآفاق لا يتسنى لباحث أن يُلمَّ به في كتاب ، ولا في عدد من
الكتب .

من هنا - ولأسباب أخرى - رأيت أن أشارك في هذا الموضوع ،
ولكن على طريقة أخرى ، وأسلوب آخر ، وفي موضوعات غير تلك
التي عرض لها المؤلفان الفاضلان ، وربما اتحد موضوع ولكن تختلف
طريقة تناوله ، كما أنه من الطبيعي أن تلتقي بعض الأفكار الجزئية مع
أفكار أحدها أو معها كليهما ، ولكن هذا الالتقاء لم يكن قصداً ،
وإنما دفعت إليه طبيعة البحث .

والله المستعان أن يهيئ لنا من أمرنا رشداً ، وأن يوفق هذا
البحث المتواضع أن يلمَّ بأطراف من هذا الموضوع ، وأن يجيد
عرضها .

وعلى الله قصد السبيل ، وهو نعم المولى ونعم النصير .

د. علي محمد حسن العماري
مكة المكرمة - جامعة أم القرى

أن يستقيم : ﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس
وبيّنات من الهدى والفرقان﴾^(١) .

والقرآن شفاء لما في الصدور ، قال تعالى : ﴿يأياها الناس قد
جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة
للمؤمنين﴾^(٢) . ﴿قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء﴾^(٣) . ﴿وننزل
من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين﴾^(٤) .

ولندع للفخر الرازي الحديث عن هذا الوصف من أوصاف
القرآن الكريم (شفاء) .

قال عند تفسيره لهذه الآية الأخيرة : «واعلم أن القرآن شفاء
من الأمراض الروحانية ، وشفاء - أيضاً - من الأمراض
الجسدية ، أما كونه شفاء من الأمراض الروحانية فظاهر ؛ وذلك
لأن الأمراض الروحانية نوعان : الاعتقادات الباطلة ، والأخلاق
المدمومة .

أما الاعتقادات الباطلة فأشدها فساداً الاعتقادات الفاسدة في
الأنبياء والنبوات والمعاد والقضاء والقدر ، والقرآن كتاب مشتمل
على دلائل المذهب الحق في هذه المطالب ، وإبطال المذاهب
الباطلة فيها ، ولما كان أقوى الأمراض الروحانية هو الخطأ في هذه
المطالب ، والقرآن مشتمل على الدلائل الكاشفة عما في هذه
المذاهب الباطلة من العيوب الباطنة ، لا جرم كان القرآن شفاء من
هذا النوع من المرض الروحاني .

وأما الأخلاق المدمومة فالقرآن مشتمل على تفصيلها ، وتعريف

(١) سورة البقرة الآية ١٨٥

(٢) سورة يونس الآية ٥٧ .

(٣) سورة فصلت من الآية ٤٤ .

(٤) سورة الاسراء الآية ٨٢ .

والقرآن الكريم على الضد من ذلك ؛ فقد كررت فيه قصص الأنبياء ، وبعضها بلغ حداً من التكرار يُظن معه أن الأسلوب سيضعف ، أو أن المعاني ستهافت ، ولكن الآيات جاءت في كل مرة بالغة حد الإعجاز ، تخلب الألباب ، وتستولى على العقول ، وتتلج صدر كل صاحب ذوق سليم .

وهذا - ولا شك - وجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم ، وبرهان يؤيد البراهين الأخرى على أنه ليس كما يقول مشركو مكة عن النبي - ﷺ - كما حكى عنهم القرآن : ﴿وقال الذين كفروا إن هذا إلا افك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاءوا ظلماً وزوراً﴾^(١) .

يقول فخر الدين الرازى في تفسيره الكبير (مفاتيح الغيب) عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله﴾^(٢) . يقول : (وأعلم أنه قد اجتمع في القرآن وجوه كثيرة تقتضى نقصان فصاحته ، ومع ذلك فإنه في الفصاحة بلغ النهاية التي لا غاية لها وزاءها ، فدل ذلك على كونه معجزاً) . وبعد أن ذكر الرازى ثلاثة من هذه الوجوه ، قال : (ورابعها : أن كل من قال شعراً فصيحاً في وصف شيء فإنه إذا كرره لم يكن كلامه الثانى في وصف ذلك الشيء بمنزلة كلامه الأول ، وفي القرآن التكرار الكثير ، ومع ذلك كل واحد منها في نهاية الفصاحة ، ولم يظهر التفاوت أصلاً) .

(١) سورة الفرقان . الآية ٤ .

(٢) سورة البقرة ، من الآية ٢٣ .

الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك
لتهدي إلى صراط مستقيم. صراط الله الذي له ما في السموات وما في
الأرض ألا إلى الله تصير الأمور ﴿١﴾ .

(١) سورة الشورى الآيتان ٥٢ ، ٥٣ .

ومن الحق أن كلاً من الباحثين أجاد وأفاد ، ولكن - كما قلت -
في هذه المقدمة أن الجانب الإنساني في القرآن مترامي الأطراف ،
ممتد الآفاق لا يتسنى لباحث أن يُلمَّ به في كتاب ، ولا في عدد من
الكتب .

من هنا - ولأسباب أخرى - رأيت أن أشارك في هذا الموضوع ،
ولكن على طريقة أخرى ، وأسلوب آخر ، وفي موضوعات غير تلك
التي عرض لها المؤلفان الفاضلان ، وربما اتحد موضوع ولكن تختلف
طريقة تناوله ، كما أنه من الطبيعي أن تلتقي بعض الأفكار الجزئية مع
أفكار أحدها أو معها كليهما ، ولكن هذا الالتقاء لم يكن قصداً ،
وإنما دفعت إليه طبيعة البحث .

والله المستعان أن يهيئ لنا من أمرنا رشداً ، وأن يوفق هذا
البحث المتواضع أن يلمَّ بأطراف من هذا الموضوع ، وأن يجيد
عرضها .

وعلى الله قصد السبيل ، وهو نعم المولى ونعم النصير .

د. علي محمد حسن العماري
مكة المكرمة - جامعة أم القرى

شهادة بعض المشركين للقرآن

كان كفار مكة على يقين من صدق محمد - عليه الصلاة والسلام - فيما يبلغه عن ربه ، وكيف يخفى صدقه ، وحجته التي جاءها بها قاهرة ، وسيرته فيهم نقية طاهرة ؟ !
فقد قضى بينهم من عمره المبارك أربعين سنة ، ما جربوا عليه كذباً ، ولا عرفوه إلا أميناً حتى لقبوه الصادق الأمين ، فما بال عقولهم الراجحة قد طاشت ، وحكمتهم الوقور قد عادت سفهاً وجهاً ؟ !

إن الكبراء عصفت براءوسهم ، والحفاظ على السلطان وإلجاء طيش عقولهم ، والإبقاء على دين الآباء والأجداد خرب ضمايرهم ، فأنكروا الحق وهم به جدُّ عارفين ، وتنكروا لأنبل رجل فيهم وهم على يقين من خلقه ، لو كذب على الناس جميعاً ما كذبهم ، فالرائد لا يكذب أهله ، هم يعرفون أنه يقرى الضيف ، ويحمل الكل ، ويعين على نوائب الدهر ، ولكن حق عليهم القول ، وسبقت في علم الله شقوتهم .

وعلى الرغم من جحودهم ، وعدائهم للدعوة وصاحبها كانت تمر اللحظة ببعض ساداتهم ، تصفو فيها نفسه ، وتغلب عليه فطرته ، فيقول في القرآن كلمة الحق ، ويصفه وصف الجهد الخبير بسرى الكلام ، العارف بأسرار البلاغة ، الحفي بأساليب البيان .
روى ابن جرير الطبري المفسر بسنده عن عكرمة بن أبي جهل أنه قال : جاء الوليد بن المغيرة إلى النبي - ﷺ - فقرأ عليه القرآن ، فكانه رقى له ، فبلغ ذلك أبا جهل بن هشام ، فقال له : أى عم . إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً قال : لِمَ ؟ قال :

والقرآن الكريم على الضد من ذلك ؛ فقد كررت فيه قصص الأنبياء ، وبعضها بلغ حداً من التكرار يُظن معه أن الأسلوب سيضعف ، أو أن المعاني ستهافت ، ولكن الآيات جاءت في كل مرة بالغة حد الإعجاز ، تخلب الألباب ، وتستولى على العقول ، وتتلج صدر كل صاحب ذوق سليم .

وهذا - ولا شك - وجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم ، وبرهان يؤيد البراهين الأخرى على أنه ليس كما يقول مشركو مكة عن النبي - ﷺ - كما حكى عنهم القرآن : ﴿وقال الذين كفروا إن هذا إلا افك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاءوا ظلماً وزوراً﴾^(١) .

يقول فخر الدين الرازى في تفسيره الكبير (مفاتيح الغيب) عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله﴾^(٢) . يقول : (وأعلم أنه قد اجتمع في القرآن وجوه كثيرة تقتضى نقصان فصاحته ، ومع ذلك فإنه في الفصاحة بلغ النهاية التي لا غاية لها وزاءها ، فدل ذلك على كونه معجزاً) . وبعد أن ذكر الرازى ثلاثة من هذه الوجوه ، قال : (ورابعها : أن كل من قال شعراً فصيحاً في وصف شيء فإنه إذا كرره لم يكن كلامه الثانى في وصف ذلك الشيء بمنزلة كلامه الأول ، وفي القرآن التكرار الكثير ، ومع ذلك كل واحد منها في نهاية الفصاحة ، ولم يظهر التفاوت أصلاً) .

(١) سورة الفرقان . الآية ٤ .

(٢) سورة البقرة ، من الآية ٢٣ .

تنزيل من الرحمن الرحيم . كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون . بشيراً ونذيراً فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون^(١) . ثم مضى فيها يقرؤها ، فلما سمعها عتبة أنصت له ، وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليها ، يستمع منه ، حتى انتهى رسول الله ﷺ - إلى السجدة منها فسجد ، ثم قال : قد سمعت ما سمعت فأنت وذاك .

فقام عتبة إلى أصحابه ، فقال بعضهم لبعض : لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به ، فلما جلس قالوا : ما وراءك ؟ قال : ورائي أني سمعت قولاً ما سمعت بمثله قط ، وما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة . يا معشر قريش أطيعوني ، خلّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه ، واعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت نبأ ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب به فلكم ملككم ، وكنتم أسعد الناس به . قالوا : سحرك بلسانه ! قال : هذا رأيي فاصنعوا ما بدا لكم^(٢) .

ولكن غلب على الرجل هواه فلم يسمع لصوت ضميره ، ولم يخضع لحكم وجدانه ، ولم يستجب لما هداه عقله ، فسلك نهج صاحبه الوليد بن المغيرة ، وظل يحارب الدعوة وصاحبها حتى قتل مع أخيه وابنه في موقعة بدر الكبرى ، وكان مصيرهم إلى القليب يتلظى بهم ، ثم يلفظهم إلى جهنم وبئس المصير .

وقد رويت روايات أخرى في شهادات بعض المشركين للقرآن ، والثناء عليه ، اكتفينا بهاتين الشهادتين الصادرتين عن صند يدين من أكبر سادات العرب .

(١) سورة فصلت الآيات من ١ إلى ٤ .

(٢) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣١٣ ، ٣١٤ .

ومن الحق أن كلاً من الباحثين أجاد وأفاد ، ولكن - كما قلت -
في هذه المقدمة أن الجانب الإنساني في القرآن مترامي الأطراف ،
ممتد الآفاق لا يتسنى لباحث أن يُلمَّ به في كتاب ، ولا في عدد من
الكتب .

من هنا - ولأسباب أخرى - رأيت أن أشارك في هذا الموضوع ،
ولكن على طريقة أخرى ، وأسلوب آخر ، وفي موضوعات غير تلك
التي عرض لها المؤلفان الفاضلان ، وربما اتحد موضوع ولكن تختلف
طريقة تناوله ، كما أنه من الطبيعي أن تلتقي بعض الأفكار الجزئية مع
أفكار أحدها أو معها كليهما ، ولكن هذا الالتقاء لم يكن قصداً ،
وإنما دفعت إليه طبيعة البحث .

والله المستعان أن يهيئ لنا من أمرنا رشداً ، وأن يوفق هذا
البحث المتواضع أن يلمَّ بأطراف من هذا الموضوع ، وأن يجيد
عرضها .

وعلى الله قصد السبيل ، وهو نعم المولى ونعم النصير .

د. علي محمد حسن العماري
مكة المكرمة - جامعة أم القرى

خليفته في الأرض ، فهو - عزّ وجلّ - يرسل إليه الرسل ، وينزل عليهم الكتب ليبشروا الإنسان وينذروه ، ويبينوا له طريق الخير والشر ، ويضعوا بين يديه أسباب السعادة في الدنيا والآخرة ، و : ﴿كل نفس بما كسبت رهينة﴾^(١) .

ومع أن هذه الصورة التي وضحت لنا من ثنايا هذه الأوصاف كافية ، وفوق الكفاية ، لكن لا يعرف القرآن حق المعرفة إلا من يعيش معه : يتلو آياته ، ويتذوق أساليبه ، ويفهم أحكامه ، ويدرس قضاياه ، ولن يبلغ الوصف مهما دق وصدق مبلغ التذوق ، ولن تجدى الدراسة والتذوق إلا إذا أقبل عليها الدارس بعقل المنصف ، وقلب المتطلع إلى الإيمان « ونفس طرحت الهوى والتقليد والعناد .

(١) سورة المدثر . الآية ٣٨ .

الفصل الثاني

وصف القرآن من آياته

صلة هذه الأوصاف بالإنسان

وقد وضع لنا من النظر في الآية الكريمة التي شرحناها أن وصف القرآن للقرآن جاء على نوعين :

الأول : صفات تبين ذاتية القرآن وحقيقته .

الثاني : أوصاف تبين الأسرار التي من أجلها أنزل (وكلها تتصل بالإنسان) .

فما جاء من النوع الأول وصف القرآن بأنه عري مبین ، وهذا مصداق لقوله تعالى : ﴿ وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم ﴾ ^(١) ، ومحمد - ﷺ - من أوسط العرب داراً ، ومن أكرمهم عشيرة : ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عتم حريصٌ عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم ﴾ ^(٢) .

وقد تردد وصف القرآن بأنه عري في بعض سورته مع اختلاف أزمنة نزولها : ﴿ إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون ﴾ ^(٣) ، وكذلك أنزلناه قرآناً عربياً وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكراً ^(٤) . ﴿ وإنه لتنزيل رب العالمين . نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين . بلسان عري مبین ﴾ ^(٥) . إلى غير ذلك من الآيات التي ورد فيها وصف القرآن بأنه عري .

(١) سورة إبراهيم . الآية ٤ .

(٢) سورة التوبة . الآية ١٢٨ .

(٣) سورة يوسف الآية ٢ .

(٤) سورة طه - الآية ١١٣ .

(٥) سورة الشعراء . الآيات : ١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٥ .

الباب الثاني

الفصل الأول

الإنسان

في القاموس المحيط : (الانس : البشر ، كالإنسان ، الواحد أنسى وأنسى ج أناسى ، وقرأ يحيى بن الحارث : «وأناسى كثيراً»^(١) بالتخفيف) ، وأناسية ، وأناس ، والمرأة انسان ، وبالهاء عامية ...

والأناسى : الناس ... ، والإنسان : الأتملة ، وظل الإنسان والمثال يرى في سواد العين ج أناسى ... ، والأنيس : الدليك ، والموانس ، وكل مأنوس به ... وجارية آنسة : طيبة النفس ، والأنس بالضم وبالتحريك ، والأنسة محركة : ضد الوحشة ، وقد أنس به مثلثة النون ... ، وآنسه : ضد أو حشه ، والشئ : أبصره كأنسه تأنيساً فيها ، وعلمه ، وأحس به ، والصوت : سمعه .. ، واستأنس : ذهب توحشه ، والوحشى : أحس أنسيا ، والرجل : استأذن ، وتبصر وما بالدار أنيس : أى أحد .

(١) من قوله تعالى : ﴿وهو الذي أرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته وأنزلنا من السماء ماء طهوراً لنحى به بلدة ميتاً ونسقيه مما خلقنا أنعاماً أناسى كثيراً﴾ . الآيتان ٤٨ ، ٤٩ . من سورة الفرقان .

الفصل الثاني

وصف القرآن من آياته

صلة هذه الأوصاف بالإنسان

وقد وضع لنا من النظر في الآية الكريمة التي شرحناها أن وصف القرآن للقرآن جاء على نوعين :

الأول : صفات تبين ذاتية القرآن وحقيقته .

الثاني : أوصاف تبين الأسرار التي من أجلها أنزل (وكلها تتصل بالإنسان) .

فما جاء من النوع الأول وصف القرآن بأنه عري مبین ، وهذا مصداق لقوله تعالى : ﴿ وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم ﴾ ^(١) ، ومحمد - ﷺ - من أوسط العرب داراً ، ومن أكرمهم عشيرة : ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عتم حريصٌ عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم ﴾ ^(٢) .

وقد تردد وصف القرآن بأنه عري في بعض سورته مع اختلاف أزمنة نزولها : ﴿ إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون ﴾ ^(٣) ، وكذلك أنزلناه قرآناً عربياً وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكراً ^(٤) . ﴿ وإنه لتنزيل رب العالمين . نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين . بلسان عري مبین ﴾ ^(٥) . إلى غير ذلك من الآيات التي ورد فيها وصف القرآن بأنه عري .

(١) سورة إبراهيم . الآية ٤ .

(٢) سورة التوبة . الآية ١٢٨ .

(٣) سورة يوسف الآية ٢ .

(٤) سورة طه - الآية ١١٣ .

(٥) سورة الشعراء . الآيات : ١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٥ .

وقيل : أصل الناس : الناسى ، قال تعالى : ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ
حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾^(١) بالرفع وبالجذر ، إشارة إلى أصله : إشارة
إلى عهد آدم حيث قال : ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ
فَنسَى﴾^(٢) ، وقال الشاعر :

لا تنسين تلك المهود فإنما

سميت إنساناً لأنك ناسى

وقال الآخر :

فاغفر فأول ناسٍ أول الناس

وفى المثل : الإنسان عرضة النسيان ، وجلسة النسوان ،
وقيل : عجباً للإنسان : كيف يفلح بين النسيان والنسوان .

هذان نصان يكمل أحدهما الآخر ، وهما لعالم واحد وهو مجد
الدين الفيروز أبادى صاحب القاموس المحيط .

وإنما نقلتها كاملين على بعض الطول فيها ليعرف كل قارئ
حقيقة هذه الكلمة التى هى أخص الكلمات به ، وكثير منا يجهل
هذه المعلومات التى ما كان ينبغي أن يجهلها أحد من بنى الإنسان .
ومن عجب أن من الناس - بل كثير منهم - من يبحث عن
مجاهيل الألفاظ والمعانى ، البعيدة كل البعد عن حياته ، ولا يكاد
يفكر يوماً فى هذه الكلمة (الإنسان) وهى - كما قلت - أخص
الكلمات به .

من جهة أخرى لم يكتف الفيروز أبادى ببيان المعانى اللغوية لهذه

(١) الآية ١٩٩ من سورة البقرة ، وتامها : ﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ .
قال محقق الكتاب الشيخ محمد على التجار - رحمه الله - : (هى قراءة ابن جبير ،

كما فى البحر المحيط ١٠٠/٢) وهى قراءة شاذة .

(٢) الآية ١١٥ من سورة (طه) ، وتامها : ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾ .

الفصل الثاني

وصف القرآن من آياته

صلة هذه الأوصاف بالإنسان

وقد وضع لنا من النظر في الآية الكريمة التي شرحناها أن وصف القرآن للقرآن جاء على نوعين :

الأول : صفات تبين ذاتية القرآن وحقيقته .

الثاني : أوصاف تبين الأسرار التي من أجلها أنزل (وكلها تتصل بالإنسان) .

فما جاء من النوع الأول وصف القرآن بأنه عري مبین ، وهذا مصداق لقوله تعالى : ﴿ وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم ﴾ ^(١) ، ومحمد - ﷺ - من أوسط العرب داراً ، ومن أكرمهم عشيرة : ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عتم حريصٌ عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم ﴾ ^(٢) .

وقد تردد وصف القرآن بأنه عري في بعض سورته مع اختلاف أزمنة نزولها : ﴿ إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون ﴾ ^(٣) ، وكذلك أنزلناه قرآناً عربياً وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكراً ^(٤) . ﴿ وإنه لتنزيل رب العالمين . نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين . بلسان عري مبین ﴾ ^(٥) . إلى غير ذلك من الآيات التي ورد فيها وصف القرآن بأنه عري .

(١) سورة إبراهيم . الآية ٤ .

(٢) سورة التوبة . الآية ١٢٨ .

(٣) سورة يوسف الآية ٢ .

(٤) سورة طه - الآية ١١٣ .

(٥) سورة الشعراء . الآيات : ١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٥ .

أما الوجوه التي وردت عليها في القرآن الكريم فقد ذكر الفيروز آبادي في (البصائر) إنها وردت على عشرين وجهاً :
ثم عددها ، وقد حَجَّرَ واسعاً إذ راعى - فقط - أسباب النزول ، ولذلك أكثر من تعداد الأشخاص الذين أريدوا بهذه الكلمة من مثل الوليد بن المغيرة وأبي جهل والنضر ابن الحارث ، ولم يتسع قوله لما هو معروف من أن خصوص السبب لا يمنع من عموم الحكم .

فمثلاً ذكر أن المراد بالإنسان في قوله تعالى : ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ﴾^(١) عياش بن أبي ربيعة ، ولكن كان ينبغي أن يلحق ذلك بقوله إن هذا كان سبب النزول أما الكلمة فأصبحت عامة ، إذ ينطبق ما جاء فيها على كل إنسان أنعم الله عليه فأبطرته النعمة فإذا اسلب الله عنه النعمة يئس وقنط ، أو رجع إلى الله . فهو يعرف الله في الشدة وينساه في الرخاء ذلك أن الملاحظ عند نزول الآية - والله أعلم بمراده - ليست ذات الرجل فقط ، وإنما الصفة التي هو عليها ، فتي وجدت الصفة في إنسان آخر كان داخلاً في هذا اللفظ الذي ورد في الآية .

وفي قوله تعالى : ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَا فٍ﴾^(٢) قال : المراد أبوجهل .

مع أن مما يدخل في مدلول هذا اللفظ - والله أعلم - كل فرد من هذا النوع ، بل ربما المراد أن هذا هو شأن الإنسان بعامة إلا من عصم الله .

(١) سورة الاسراء ٨٣ وتامها : ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرْكَانَ يُوَسْوِسُ﴾ وفي سورة (فصلت) -

٥١ . وتامها : ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَلَإِنَّ دَعَاءَ عَرِيسٍ﴾ .

(٢) سورة العلق - ٦ - ٧ .

والقرآن الكريم على الضد من ذلك ؛ فقد كررت فيه قصص الأنبياء ، وبعضها بلغ حداً من التكرار يُظن معه أن الأسلوب سيضعف ، أو أن المعاني ستهافت ، ولكن الآيات جاءت في كل مرة بالغة حد الإعجاز ، تخلب الألباب ، وتستولى على العقول ، وتتلج صدر كل صاحب ذوق سليم .

وهذا - ولا شك - وجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم ، وبرهان يؤيد البراهين الأخرى على أنه ليس كما يقول مشركو مكة عن النبي - ﷺ - كما حكى عنهم القرآن : ﴿وقال الذين كفروا إن هذا إلا افك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاءوا ظلماً وزوراً﴾^(١) .

يقول فخر الدين الرازى في تفسيره الكبير (مفاتيح الغيب) عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله﴾^(٢) . يقول : (وأعلم أنه قد اجتمع في القرآن وجوه كثيرة تقتضى نقصان فصاحته ، ومع ذلك فإنه في الفصاحة بلغ النهاية التي لا غاية لها وزاءها ، فدل ذلك على كونه معجزاً) . وبعد أن ذكر الرازى ثلاثة من هذه الوجوه ، قال : (ورابعها : أن كل من قال شعراً فصيحاً في وصف شيء فإنه إذا كرره لم يكن كلامه الثانى في وصف ذلك الشيء بمنزلة كلامه الأول ، وفي القرآن التكرار الكثير ، ومع ذلك كل واحد منها في نهاية الفصاحة ، ولم يظهر التفاوت أصلاً) .

(١) سورة الفرقان . الآية ٤ .

(٢) سورة البقرة ، من الآية ٢٣ .

يجعله رأياً حاسماً .

ثم قال : (وليعلم القارىء لهذا الباب وغيره أن المؤلف يريد سبب نزول الآية ، وقد أصبحت الآيات بعدُ عامة في الإنسان بحسب ما تقتضيه الآية .

وهو يتبع ما يقال دون تمحيص وتحقيق ، وكان خيراً له أن بنأى عن هذه التفاصيل) .

* * *

هذا . وسنعرض بعض الآيات التي ورد فيها ذكر الإنسان ، ونذكر ما قاله العلماء فيها .

وسترد في أثناء الفصول - إن شاء الله - بقية الآيات التي ورد فيها لفظ الإنسان عند السياق المناسب ، وفي الفصل الذي هو أملك بها .

الفصل الثاني

وصف القرآن من آياته

صلة هذه الأوصاف بالإنسان

وقد وضع لنا من النظر في الآية الكريمة التي شرحناها أن وصف القرآن للقرآن جاء على نوعين :

الأول : صفات تبين ذاتية القرآن وحقيقته .

الثاني : أوصاف تبين الأسرار التي من أجلها أنزل (وكلها تتصل بالإنسان) .

فما جاء من النوع الأول وصف القرآن بأنه عري مبین ، وهذا مصداق لقوله تعالى : ﴿ وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم ﴾ ^(١) ، ومحمد - ﷺ - من أوسط العرب داراً ، ومن أكرمهم عشيرة : ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عتم حريصٌ عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم ﴾ ^(٢) .

وقد تردد وصف القرآن بأنه عري في بعض سورته مع اختلاف أزمنة نزولها : ﴿ إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون ﴾ ^(٣) ، وكذلك أنزلناه قرآناً عربياً وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكراً ^(٤) . ﴿ وإنه لتنزيل رب العالمين . نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين . بلسان عربى مبين ﴾ ^(٥) . إلى غير ذلك من الآيات التي ورد فيها وصف القرآن بأنه عري .

(١) سورة إبراهيم . الآية ٤ .

(٢) سورة التوبة . الآية ١٢٨ .

(٣) سورة يوسف الآية ٢ .

(٤) سورة طه - الآية ١١٣ .

(٥) سورة الشعراء . الآيات : ١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٥ .

والعلم يتطور ، وتتغير نظرياته بصفة مستمرة ، خاصة في السنوات الأخيرة وتفسير القرآن بربطه بالعلوم الحديثة ، ربما يؤدي إلى التعسف في تفسير الآيات .

ويرد المؤيدون بأن الأبحاث التي ستم في هذا الشأن لن تربط الآيات القرآنية إلا بما تأكد ثبوته من النظريات العلمية .

والأمر كذلك في محاولات ربط القرآن بمباحث علم النفس الحديث ، وقد شاعت وراجت كلمة (الإعجاز النفس) .

نعم الذى ينعم النظر في هذا الكتاب الكريم يتأكد من أنه بنى كل تشريعاته وأحكامه ، وأوامره ونواهيه . وأخلاقه وآدابه على أسس سليمة من سنن الاجتماع ، وأصوله ، وطبائع النفوس وميولها . وحقائق الحياة وفلسفتها .

ولكن لم يكن هذا الجانب داخلاً في (التحدى) لأنه حينئذ يتحدى العرب بما لا يعرفون أو بما لا يحسنونه ، وقد جاء من بعدهم من يعرفون هذا الجانب ، ومن يحسنونه ، ومع ذلك لم يقل أحد من فقهاء المسلمين ولا من حكمائهم ولا من فلاسفتهم بالإعجاز النفسى .

ولما كان هذا البحث يتعلق بالإنسان في القرآن ، ولما كانت في القرآن إشارات كثيرة إلى الطبائع النفسية رأيت ألا أغفل الحديث عما يسمونه (الإعجاز النفسى) ، ورأيت أن أسميه (البرهان النفسى) ، والبرهان غير الإعجاز ، وقد يكون البرهان خارقاً للعادة كما حدث للنبي - ﷺ - من آيات كونية ، فلا ينبغي أن نسميها (معجزات) لأنه لم يتحدّ بها ، وإنما هي من البراهين على أنه نبي صادق .

ولا يتبين هذا الذى نحاوله إلا أن يتجرد باحث أو باحثون

الفصل الثاني

وصف القرآن من آياته

صلة هذه الأوصاف بالإنسان

وقد وضع لنا من النظر في الآية الكريمة التي شرحناها أن وصف القرآن للقرآن جاء على نوعين :

الأول : صفات تبين ذاتية القرآن وحقيقته .

الثاني : أوصاف تبين الأسرار التي من أجلها أنزل (وكلها تتصل بالإنسان) .

فما جاء من النوع الأول وصف القرآن بأنه عري مبین ، وهذا مصداق لقوله تعالى : ﴿ وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم ﴾ ^(١) ، ومحمد - ﷺ - من أوسط العرب داراً ، ومن أكرمهم عشيرة : ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عتم حريصٌ عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم ﴾ ^(٢) .

وقد تردد وصف القرآن بأنه عري في بعض سورته مع اختلاف أزمنة نزولها : ﴿ إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون ﴾ ^(٣) ، وكذلك أنزلناه قرآناً عربياً وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكراً ^(٤) . ﴿ وإنه لتنزيل رب العالمين . نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين . بلسان عري مبین ﴾ ^(٥) . إلى غير ذلك من الآيات التي ورد فيها وصف القرآن بأنه عري .

(١) سورة إبراهيم . الآية ٤ .

(٢) سورة التوبة . الآية ١٢٨ .

(٣) سورة يوسف الآية ٢ .

(٤) سورة طه - الآية ١١٣ .

(٥) سورة الشعراء . الآيات : ١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٥ .

لِقَاءَنَا فِي طَغْيَانِهِمْ بِعَمْهُونٍ»^(١) .

تؤكد هذه الآيات الكريمة أن الذي يؤمن بلقاء الله ، ويرجو ما عنده ، ويعمل صالحاً يحيا حياة طيبة ، وهذه الكلمة «طيبة» تتضمن كل معاني السعادة والهدوء ، والرضا ، والخير ، والأمن . حياة طيبة « لا قلق فيها ، ولا يأس ولا سخط إن كانت نعيماً خالصاً فذاك » وإن كانت فيها المنغصات التي تهول غير المؤمن « وقد تحول حياتهم أحياناً جحيماً فهي عند المؤمن ، الصادق الإيمان هيئة الوقع على نفسه ، لأنه يقابلها بالرضا والتسليم ، رجاء ما عند الله تعالى من حسن الثواب ، بل قد يقوى الإيمان في بعض النفوس الصافية حتى تعد النقم نعماً ، والمشر الذي يصيبها خيراً ، وقد أثر عن بعض العباد قوله : التهنة على آجل الثواب خير من التعزية على عاجل المصيبة .

هكذا يعيش المؤمن الصادق الإيمان حياة طيبة ، وهكذا يطمئن قلبه . وتسكن جوارحه ، ويتقبل كل ما يناله من خير بالشكر ، وما يصيبه من ضر بالصبر ، وكلما ذكر الله تعالى عند السراء . أو عند الضراء اطمأن قلبه ، وأشرقت نفسه ، وسكنت جوارحه : ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾^(٢) .

وقد يلفت النظر في آية (التغابن) : ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾ أن الهداية فيها وقعت على القلب ، وهي الآية الوحيدة في القرآن التي صُرح فيها بانقلب مع فعل الهداية ، فالمعهود أن

(١) يونس ١١ .

(٢) البقرة ٢٨ .

يقع فعل الهداية على الذات :

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ﴾^(١) . ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدَى﴾^(٢) .

﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾^(٣) . إلى كثير من مثل هذه الآيات الكريمة ، فهداية القلب لها دلالة خاصة في مثل هذا

السياق : ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ .

فالمرغوب فيه هنا هو أفضل أنواع الهداية وأقواها ، ولذلك صُرح بلفظ القلب ، وهذا منتهى ما يطمح إليه الحى ، أن تعمر السكينة قلبه حيث يدعو كل ما حوله إلى أن يتمزق أسى ، وينصدع حزناً : ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾^(٤) .

أما من لا يرجو لقاء الله تعالى ، ولا يؤمن أن هناك يوماً آخر يجازى فيه المحسن على إحسانه ، ويعاقب المسيء على إساءته ، فإنه يظل مضطرب النفس ، حائر اللب ، لأنه - ولا شك - موقف بالموت ، فهو - دائماً - يتوقع أن يفارق النعيم الذى هو فيه ، دون أن يكون - فى عقيدته - وراء الموت نعيم آخر ، وهو يحزن لكل حادث يصيبه ، ولكل خطب يلُم به ، لأن فى كل ذلك تنغيصاً للحياة التى لا بديل لها عنده ، ولأنها آلام ليس وراء تحملها أى نفع ، ويستبد به القلق ، ويفقد سكينة النفس ، ويظل هؤلاء كما أخبر القرآن الكريم : ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ ، أى فى عمايتهم يتحIRON ويضطربون ،

(١) يونس . من الآية ٩ . (٤) سورة الأنعام - الآية ٨٢ .

(٢) سورة الكهف من الآية ١٧ .

(٣) سورة البلد الآية (١٠) .

وكثيراً ما يصيب الكافر بالله مرض عضوى من جراء القلق الذى يعانیه ، يجهد الأطباء فى الاهتداء إلى سببه ، ثم يتبين - وربما بعد فوات الأوان - أن سببه اضطراب نفسى ، نشأ عن فقدانه هدوء القلب الذى يعيشه الدين فى نفوس المؤمنين . يقول (كارل يونج) وهو من أعظم الأطباء النفسيين فى هذا العصر :

(استشارنى فى خلال الأعوام الثلاثين الماضية أشخاص من مختلف شعوب العالم المتحضرة ، وعالجت مئات من المرضى ، فلم أجد مشكلة واحدة من مشكلات أولئك الذين بلغوا منتصف العمر - أى الخامسة والثلاثين - لا ترجع فى أساسها إلى افتقادهم الإيمان ، وخروجهم على تعاليم الدين ، ويصح القول بأن كل واحد من هؤلاء المرضى وقع فريسة المرض لأنه حُرِمَ سكينة النفس التى يجلبها الدين - أى دين - ، ولم يبرأ واحد من هؤلاء المرضى إلا حين استعاد إيمانه ، واستعان بأوامر الدين ونواهيهِ على مواجهة الحياة) . فسكينة النفس واطمئننانها من لوازم التدين ، وحيرتها واضطرابها ، والسير على غير هدى ، وكثير من الأمراض النفسية ، بل العضوية - لوازم للذين لا يرجون لقاء الله . ومن هنا قال غاندى : (بغير الصلاة كان يتحتم على أن أغدو معتوها منذ أمد طويل) .

ومن هنا - أيضاً نجد حوادث الانتحار تكثر بين الشعوب التى تُسَلِّم قيادها للشهوات والملذات ، وتصبح وتمس ولا سيطرة للدين عليها .

ولعل من المصادفات الغريبة أننى فى هذه اللحظة التى أعد

فيها هذه الكلمة للطبع وقعت عيناي على خبر في إحدى الصحف يقول : (سجلت المجر رقماً قياسياً أوروبياً في محاولات مواطنيها الانتحار خلال العام الماضي بعد أن ذكرت السلطات المجرية أن نحو خمسة آلاف مواطن مجري قد انتحروا في عام ١٩٨٤م في الوقت الذي حاول فيه خمسة وخمسون ألفاً آخرون الانتحار في نفس العام)^(١) .

وطبيعي أن السبب الأساسي في ذلك فقد الدين الذي يدفع هؤلاء إلى ادمان المخدرات والخمور ، ثم يجب إليهم التخلص من الحياة بأيديهم ، وربما كانت النسبة في البلاد الغربية والشرقية أقل من ذلك بكثير ، ولكنها على أى حال نسب عالية ، وبخاصة في أمريكا .

هذا في حين أنه يمر العام ببعض البلاد الإسلامية ولا نسمع بمحادث انتحار واحد ، وإذا حدث في بعض آخر فإنه لا يتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة في العام ، وربما أقل ، فأين خمسة من ستين ألفاً ؟!

٢ - ويتحدث علماء النفس عن ازدواج الشعور الديني ، وأنه ثبت لهم من التجارب الكثيرة أن شعور المراهق نحو الله شعور مركب من عناصر متناقضة ، الود والعداء ، والأمن والخوف ، ويذكرون في ذلك اعترافات كثيرة ، منها - على سبيل المثال - قول مراهق في سن الثامنة عشرة : (صلى بالله لا تكون قوية إلا إذا وقعت في مأزق ، أو ارتكبت إثماً فأخشى من الله العقاب ، وكذلك أعاهده بيني وبين نفسي ألا أرتكبه مرة ثانية ، وقلما نفذت ذلك العهد)^(٢) .

(١) صحيفة الأهرام القاهرة الصادرة في ١٨/٩/١٩٨٥م .

(٢) الدكتور مسطفي زيور - تطور الشعور الديني ص ٢٢٤ .

ويذكرون أن من الناس من يرضى عن الله إذا أصابه
خير » فإذا نزلت به نازلة اشتدت حفيظته على القدر الذى
يمثل فى سريره (الله) .

هذا بعض الذى وصل إليه علماء النفس بعد التجارب
الكثيرة ، وبعد قرون متطاولة من حياة البشرية ، وهو الذى بلغه
النبي الأمي ، الذى نشأ فى بيئة أمية لقومه وللناس كافة عن الله
تعالى منذ أربعة عشر قرناً .

ولست أريد أن أقارن بين ما جاء فى القرآن الكريم ، وما وصل
إليه علماء النفس المحدثون ، ولا أريد أن أجعل من أقوالهم تأييداً لما
جاء فى القرآن كما يلجأ إليه بعض الغافلين حين يقولون لقد أيد العلم
الحديث ما جاء فى القرآن بالنسبة لهذا الكشف أو ذاك فإذا كنا
لا بد قائلين فلنقل أن فى القرآن ما يجعل من هذا الكشف أمراً قد
يكون مقبولاً ، بل إني أنفر من الذين يحلوهم أن يؤيدوا بعض ما
قاله علماءنا السابقون ببعض ما يقوله فلاسفة الغرب وكتابهم .
فعلمائنا هم الأصل ، ولا يمكن أن نجعل غيرهم حكماً عليهم ،
ومؤيدين لهم ؛ لأن معنى هذا الشعور بأن ما يقوله الغربيون هو
الأقوى والأحق بالقبول .

لله سبحانه المثل الأعلى فلا مقارنة » ولا ذهاباً إلى التأييد وإنما
القصْد أن أقول إن القرآن الكريم كشف عن كثير من طبائع النفوس
البشرية » وغرائزها ، وميولها وانفعالاتها فى وقت لم يكن يتيح لبشر
كائنات من كان أن يكشف بهذه الدقة ، وبهذا الصدق عن هذه
الترعات .

وقد تردد هذا المعنى كثيراً فى القرآن الكريم ، ولكنى أكتفى هنا
بثلاث آيات هى جماع ما تناول به القرآن هذا المعنى :

يقع فعل الهداية على الذات :

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ﴾^(١) . ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدَى﴾^(٢) .

﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾^(٣) . إلى كثير من مثل هذه الآيات الكريمة ، فهداية القلب لها دلالة خاصة في مثل هذا

السياق : ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ .

فالمرغوب فيه هنا هو أفضل أنواع الهداية وأقواها ، ولذلك صُرح بلفظ القلب ، وهذا منتهى ما يطمح إليه الحى ، أن تعمر السكينة قلبه حيث يدعو كل ما حوله إلى أن يتمزق أسى ، وينصدع حزناً : ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾^(٤) .

أما من لا يرجو لقاء الله تعالى ، ولا يؤمن أن هناك يوماً آخر يجازى فيه المحسن على إحسانه ، ويعاقب المسيء على إساءته ، فإنه يظل مضطرب النفس ، حائر اللب ، لأنه - ولا شك - موقف بالموت ، فهو - دائماً - يتوقع أن يفارق النعيم الذى هو فيه ، دون أن يكون - فى عقيدته - وراء الموت نعيم آخر ، وهو يحزن لكل حادث يصيبه ، ولكل خطب يلُم به ، لأن فى كل ذلك تنغيصاً للحياة التى لا بديل لها عنده ، ولأنها آلام ليس وراء تحملها أى نفع ، ويستبد به القلق ، ويفقد سكينة النفس ، ويظل هؤلاء كما أخبر القرآن الكريم : ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ ، أى فى عمايتهم يتحIRON ويضطربون ،

(١) يونس . من الآية ٩ . (٤) سورة الأنعام - الآية ٨٢ .

(٢) سورة الكهف من الآية ١٧ .

(٣) سورة البلد الآية (١٠) .

له ، ومنهم من يحتفظ ببعض هذا الإخلاص .
وبين هذين درجات متفاوتة ، وكل واحد من هذا الفريق
تصدق عليه كلمة : «مقتصد» حتى الذى يجهد جهده ، وببذل
أقصى طاقته فى الشكر لله هو مقتصد ؛ لأن العبد مهما بالغ فى
العبادة والشكر فلن يبلغ مما يجب لله عليه إلا أقل القليل ، فهو -
بهذا المعنى - مقتصد .

بعد استعراض هذه الآيات - ومثيلاتها فى القرآن كثيرة - يحق
لنا أن نقول - دون قصد إلى المقارنة أو التنظير - إن وصف القرآن
الكرام للطبائع البشرية وتنبيهه إلى مكانها فى النفوس الإنسانية لا
يذكر بجانبه ما أفى فيه علماء النفس أعمارهم ، وما اغتروا به من
نتائج التجارب والمعامل .

٣ - يقول الله تعالى فى خطاب نساء نبيه - عليه أزكى الصلاة وأتم
التسليم - : ﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنَّ أَتَقِينَّ
فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقَلْنَ قَوْلًا
مَعْرُوفًا ۝ ﴾ (١) .

والذى يلفت عالم النفس ، وعالم الاجتماع فى هذا
الإرشاد الإلهى قوله - سبحانه - : ﴿ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ
فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ ﴾ ، فى الآية كلمة هى «تخضعن»
وحرف هو (الفاء) فى «فيطمع» يدلان فى حسم ووضوح على
طبيعة بشرية لا سبيل إلى الشك فيها .

ذلك أن المرأة ربما تماسكت الزمن الطويل ، فلا تكاد
الظنون السيئة تحوم حولها . ولا تكاد نفس رجل تحدثه أن

(١) سورة الأحزاب - الآية ٣٢ .

يقع فعل الهداية على الذات :

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ﴾^(١) . ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدَى﴾^(٢) .

﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾^(٣) . إلى كثير من مثل هذه الآيات الكريمة ، فهداية القلب لها دلالة خاصة في مثل هذا

السياق : ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ .

فالمرغوب فيه هنا هو أفضل أنواع الهداية وأقواها ، ولذلك صُرح بلفظ القلب ، وهذا منتهى ما يطمح إليه الحى ، أن تعمر السكينة قلبه حيث يدعو كل ما حوله إلى أن يتمزق أسى ، وينصدع حزناً : ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾^(٤) .

أما من لا يرجو لقاء الله تعالى ، ولا يؤمن أن هناك يوماً آخر يجازى فيه المحسن على إحسانه ، ويعاقب المسيء على إساءته ، فإنه يظل مضطرب النفس ، حائر اللب ، لأنه - ولا شك - موقف بالموت ، فهو - دائماً - يتوقع أن يفارق النعيم الذى هو فيه ، دون أن يكون - فى عقيدته - وراء الموت نعيم آخر ، وهو يحزن لكل حادث يصيبه ، ولكل خطب يلُم به ، لأن فى كل ذلك تنغيصاً للحياة التى لا بديل لها عنده ، ولأنها آلام ليس وراء تحملها أى نفع ، ويستبد به القلق ، ويفقد سكينة النفس ، ويظل هؤلاء كما أخبر القرآن الكريم : ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ ، أى فى عمايتهم يتحIRON ويضطربون ،

(١) يونس . من الآية ٩ . (٤) سورة الأنعام - الآية ٨٢ .

(٢) سورة الكهف من الآية ١٧ .

(٣) سورة البلد الآية (١٠) .

وهكذا يكشف القرآن عن الطبائع البشرية في دقة وصدق ووضوح .

على أن في هذه الآية لطيفة دقيقة ، فهي خطاب للنساء النبي ، وهن ما هن ، شرف منصب ، وكمال عفة ، وجلال قدر ، فإذا كان القرآن الكريم يحذرهن من الخضوع بالقول خشية الطمع فيهن فعنى ذلك أن الطمع كأنه حتم لازم للخضوع مهما كانت مكانة المرأة ، ومهما علا قدرها . ولو كان الخطاب للنساء المؤمنات بعامة لكان - أيضاً - كشفاً عن الطبيعة الإنسانية التي لا مجال للشك فيها . لكنه مع نساء النبي أبلغ وأدق ، وأدل على تأصل تلك الطبيعة في الإنسان المحكوم بشهواته ، الخاضع لسلطان غرائزه .

يقع فعل الهداية على الذات :

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ﴾^(١) . ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدَى﴾^(٢) .

﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾^(٣) . إلى كثير من مثل هذه الآيات الكريمة ، فهداية القلب لها دلالة خاصة في مثل هذا

السياق : ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ .

فالمرغوب فيه هنا هو أفضل أنواع الهداية وأقواها ، ولذلك صُرح بلفظ القلب ، وهذا منتهى ما يطمح إليه الحى ، أن تعمر السكينة قلبه حيث يدعو كل ما حوله إلى أن يتمزق أسى ، وينصدع حزناً : ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾^(٤) .

أما من لا يرجو لقاء الله تعالى ، ولا يؤمن أن هناك يوماً آخر يجازى فيه المحسن على إحسانه ، ويعاقب المسيء على إساءته ، فإنه يظل مضطرب النفس ، حائر اللب ، لأنه - ولا شك - موقف بالموت ، فهو - دائماً - يتوقع أن يفارق النعيم الذى هو فيه ، دون أن يكون - فى عقيدته - وراء الموت نعيم آخر ، وهو يحزن لكل حادث يصيبه ، ولكل خطب يلُم به ، لأن فى كل ذلك تنغيصاً للحياة التى لا بديل لها عنده ، ولأنها آلام ليس وراء تحملها أى نفع ، ويستبد به القلق ، ويفقد سكينة النفس ، ويظل هؤلاء كما أخبر القرآن الكريم : ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ ، أى فى عمايتهم يتحIRON ويضطربون ،

(١) يونس . من الآية ٩ . (٤) سورة الأنعام - الآية ٨٢ .

(٢) سورة الكهف من الآية ١٧ .

(٣) سورة البلد الآية (١٠) .

والم تأمل فيها يجدها أجملت كل حياة الإنسان ، وأشارت إلى كل ما تضمنه القرآن ، وألححت إلى أن هذا القرآن كتاب السماء . فقد تضمنت هذه الآيات عقيدة التوحيد ، وخلق الإنسان « الأصل الذى خلق منه ، وبعثه الرسول محمد - ﷺ - والتنويه بمكانة العلم ، وبمنزلة القلم .

وصف الله - سبحانه - نفسه فى هذه الآيات بأربع صفات : أنه رب محمد ، وأنه خلق كل كائن ، وبخاصة الإنسان ، وبأنه الأكرم ، وبأنه علّم الإنسان ، وعلّم بالقلم . وكل صفة من هذه الصفات ترشد العقل السليم إلى الإيمان بالله وحده ، فهو رب محمد : ربه وكمله ، وقد شرفه بهذه الإضافة ، وفى ذلك ما يشير إلى نبوته - عليه السلام - ؛ لأن غاية الكمالات أن تضاف صفة الربوبية إلى من أنزل عليه هذا القرآن . ووصفُ الله نفسه - فى هذا المقام - بأنه الخالق يدل على أنه لا خالق سواه - كما يقول أهل السنة .

(قالوا : لأنه - سبحانه - جعل الخالقية صفة مميزة لذات الله - تعالى - عن سائر الذوات ، وكل صفة هذا شأنها فإنه يستحيل وقوع الشركة فيها . قالوا : وبهذا الطريق عرفنا أن خاصية الألوهية هى القدرة على الاختراع) .

(ثم لما صارت الإلهية موقوفة على الخالقية حصل القطع بأن من لم يخلق لم يكن إلهاً ، فلهذا قال تعالى : ﴿أَفَنُحْثِقُ كَمَن لَا يَخْلُقُ﴾^(١) .

وكيف لا يكون خالقاً وقد بعث الحياة فى دم متجمد لا حياة

فيه !!!

(١) من تفسير الفخر الرازى (مفاتيح الغيب) لسورة العلق - والآية من سورة النحل

يقع فعل الهداية على الذات :

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ﴾^(١) . ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدَى﴾^(٢) .

﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾^(٣) . إلى كثير من مثل هذه الآيات الكريمة ، فهداية القلب لها دلالة خاصة في مثل هذا

السياق : ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ .

فالمرغوب فيه هنا هو أفضل أنواع الهداية وأقواها ، ولذلك صُرح بلفظ القلب ، وهذا منتهى ما يطمح إليه الحى ، أن تعمر السكينة قلبه حيث يدعو كل ما حوله إلى أن يتمزق أسى ، وينصدع حزناً : ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾^(٤) .

أما من لا يرجو لقاء الله تعالى ، ولا يؤمن أن هناك يوماً آخر يجازى فيه المحسن على إحسانه ، ويعاقب المسيء على إساءته ، فإنه يظل مضطرب النفس ، حائر اللب ، لأنه - ولا شك - موقف بالموت ، فهو - دائماً - يتوقع أن يفارق النعيم الذى هو فيه ، دون أن يكون - فى عقيدته - وراء الموت نعيم آخر ، وهو يحزن لكل حادث يصيبه ، ولكل خطب يلُم به ، لأن فى كل ذلك تنغيصاً للحياة التى لا بديل لها عنده ، ولأنها آلام ليس وراء تحملها أى نفع ، ويستبد به القلق ، ويفقد سكينة النفس ، ويظل هؤلاء كما أخبر القرآن الكريم : ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ ، أى فى عمايتهم يتحIRON ويضطربون ،

(١) يونس . من الآية ٩ . (٤) سورة الأنعام - الآية ٨٢ .

(٢) سورة الكهف من الآية ١٧ .

(٣) سورة البلد الآية (١٠) .

الصحيحة والعلم ، والمراد به العلم النافع أو الذى ينبغى أن يستخدمه الإنسان فيما ينفع البشرية ، ويساعد على تقدمها ورفاهيتها ، وبهية لها حياة كريمة رفيعة .

وبدلنا هذا الربط على أنه لا إنسانية للإنسان إلا بهذين :
العقيدة الصحيحة والعلم ، والذى يتجرد منها أو من أحدهما نصف إنسان بل هو إلى الحيوانية أقرب ، وأوضح الأمثلة على ذلك وأقربها إلى الأذهان ، وأمسها بحياتنا المعاصرة ما نشأ عن الدارونية والفرويدية والوجودية من انحلال الأخلاق ، وسقوط المجتمعات فى هوة الرذائل ، وتجردها من كل المعانى الإنسانية النبيلة .

قال تعالى : ﴿والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم﴾ (١) .

وقال سبحانه :

﴿ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون﴾ (٢) .
وقال عز وجل :

﴿أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلاً أم تحسب

(١) سورة محمد - من الآية ١٢

(٢) سورة الأعراف - الآية ١٧٩ - قال الراغب فى مفرداته : الذرة : إظهار الله تعالى ما أبداه : يقال : ذرأ الله الخلق أى أوجد أشخاصهم - اهـ . والذرة فى أصل اللغة : بث الأشياء وبذرهما وتفريقهما وتكثيرها .

قال أهل المعانى : إن الكفار لهم قلوب يفقهون بها مصالحهم المتعلقة بالدنيا ، ولهم أعين يبصرون بها المراتب وآذان يسمعون بها الكلمات ، وهذا لا شك فيه ، ولما وصفهم الله عز وجل بأنهم لا يفقهون ولا يبصرون ولا يسمعون مع وجود هذه الحواس الدراكية علم بذلك أن المراد بذلك يرجع إلى الحياة الروحية ، واللذات المعنوية ، والسعادة الأبدية .

يقع فعل الهداية على الذات :

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ﴾^(١) . ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدَى﴾^(٢) .

﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾^(٣) . إلى كثير من مثل هذه الآيات الكريمة ، فهداية القلب لها دلالة خاصة في مثل هذا

السياق : ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ .

فالمرغوب فيه هنا هو أفضل أنواع الهداية وأقواها ، ولذلك صُرح بلفظ القلب ، وهذا منتهى ما يطمح إليه الحى ، أن تعمر السكينة قلبه حيث يدعو كل ما حوله إلى أن يتمزق أسى ، وينصدع حزناً : ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾^(٤) .

أما من لا يرجو لقاء الله تعالى ، ولا يؤمن أن هناك يوماً آخر يجازى فيه المحسن على إحسانه ، ويعاقب المسيء على إساءته ، فإنه يظل مضطرب النفس ، حائر اللب ، لأنه - ولا شك - موقف بالموت ، فهو - دائماً - يتوقع أن يفارق النعيم الذى هو فيه ، دون أن يكون - فى عقيدته - وراء الموت نعيم آخر ، وهو يحزن لكل حادث يصيبه ، ولكل خطب يلُم به ، لأن فى كل ذلك تنغيصاً للحياة التى لا بديل لها عنده ، ولأنها آلام ليس وراء تحملها أى نفع ، ويستبد به القلق ، ويفقد سكينة النفس ، ويظل هؤلاء كما أخبر القرآن الكريم : ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ ، أى فى عمايتهم يتحIRON ويضطربون ،

(١) يونس . من الآية ٩ . (٤) سورة الأنعام - الآية ٨٢ .

(٢) سورة الكهف من الآية ١٧ .

(٣) سورة البلد الآية (١٠) .

على أن أفضل العلم ما يحرس العقيدة ، وفي المقام الأول من العلوم العلم بالله وصفاته ، وبالشرعة وأحكامها ، وبسنن الله في الكون ، وفي الأنفس .
فالجاهل بكل هذه قد يعبد الله ، ولكنه لا يأمن على نفسه أن يشرك به من حيث لا يدري ، ولا على سلوكه أن يضل الطريق السوى .

وكثيراً ما رأينا وقرأنا عن أصحاب الأهواء ممن يدعون العلم والتقوى والورع ما لا يتفق مع العقيدة الصحيحة ، فهم يتلعبون بالجهال « ويوردونهم موارد الهلكة » وينحرفون بهم عن الدين الصحيح ، والعقيدة السليمة ، ويتزنون أموالهم ، ويحملونهم على الاعتقاد فيهم بأن لديهم مفاتيح الجنة « وعلم المغيبات » .
وقد كان حرياً بالباحثين في العلوم الكونية ، والمتعمقين في دراسة النفس الإنسانية ، مادة وروحاً ، أن يكونوا من السابقين إلى الإقرار بإله قادر عليم هو الذى خلق هكذا الكون ، وصرّفه على أدق نظام ، وأحكم بناء .

وفي القرآن الكريم آيتان غفل عنها الكثيرون ، هما قوله تعالى :
﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٍ .
وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ الْأَنْعَامُ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ (١) .

(١) سورة فاطر - الآيتان ٢٧ - ٢٨ . والجدة ، جمع جدة وهي الحفلة أو الطريقة .

فيها هذه الكلمة للطبع وقعت عيناي على خبر في إحدى الصحف يقول : (سجلت المجر رقماً قياسياً أوروبياً في محاولات مواطنيها الانتحار خلال العام الماضي بعد أن ذكرت السلطات المجرية أن نحو خمسة آلاف مواطن مجري قد انتحروا في عام ١٩٨٤م في الوقت الذي حاول فيه خمسة وخمسون ألفاً آخرون الانتحار في نفس العام)^(١) .

وطبيعي أن السبب الأساسي في ذلك فقد الدين الذي يدفع هؤلاء إلى ادمان المخدرات والخمور ، ثم يجب إليهم التخلص من الحياة بأيديهم ، وربما كانت النسبة في البلاد الغربية والشرقية أقل من ذلك بكثير ، ولكنها على أى حال نسب عالية ، وبخاصة في أمريكا .

هذا في حين أنه يمر العام ببعض البلاد الإسلامية ولا نسمع بمحادث انتحار واحد ، وإذا حدث في بعض آخر فإنه لا يتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة في العام ، وربما أقل ، فأين خمسة من ستين ألفاً ؟!

٢ - ويتحدث علماء النفس عن ازدواج الشعور الديني ، وأنه ثبت لهم من التجارب الكثيرة أن شعور المراهق نحو الله شعور مركب من عناصر متناقضة ، الود والعداء ، والأمن والخوف ، ويذكرون في ذلك اعترافات كثيرة ، منها - على سبيل المثال - قول مراهق في سن الثامنة عشرة : (صلى بالله لا تكون قوية إلا إذا وقعت في مأزق ، أو ارتكبت إثماً فأخشى من الله العقاب ، وكذلك أعاهده بيني وبين نفسي ألا أرتكبه مرة ثانية ، وقلما نفذت ذلك العهد)^(٢) .

(١) صحيفة الأهرام القاهرة الصادرة في ١٨/٩/١٩٨٥م .

(٢) الدكتور مسطفي زيور - تطور الشعور الديني ص ٢٢٤ .

وفاكهة وآباً . متاعاً لكم ولأنعامكم ﴿١٠﴾ .
ويكون في الناس وفي الحيوان باختلاف أجناسها وأنواعها كذلك .

وقد يكون اختلاف الألوان هنا اختلافاً في الهيئات من البياض والحمرة والصفرة .

وعلى التفسير الأول يكون البحث باكتناه بواطن الأشياء ، وبكشف أسرار خلقها وتكوينها .

وعلى التفسير الثاني يكون اختلاف الألوان من الآيات الدالة على قدرة الله ، قال تعالى : ﴿ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين﴾ (١) .

قال الزمخشري : (الألسنة اللغات أو أجناس النطق وأشكاله . خالف - سبحانه - بين هذه الأشياء حتى لا تكاد تسمع منطقين متفقين في همس واحد ، ولا جهازة ولا حدة ولا رخاوة ولا فصاحة ولا لكنة ولا نظم ولا أسلوب ، ولا غير ذلك من صفات النطق وأحواله ، وكذلك الصور وتخطيطها ، والألوان وتنوعها ، واختلاف ذلك وقع التعارف ، فلو اتفقت وتشاكلت ، وكانت ضرباً واحداً لوقع التجاهل والالتباس ، ولتعطلت مصالح كثيرة ، وربما رأيت توأمين يشتهبان في الحلية فيعروك الخطأ في التمييز بينهما ،

(١) سورة عبس . الآيات ٢٤ - ٣٢ .

والقضب هو الرطبة ، وهي التي إذا يبست سميت بالفت أو هو العلف بعينه ذكره المبرد ، وهو قول الحسن .
والقلب : المتكاثفة الأشجار أو الشجر العظيم . والأب هو المرعى ، وقيل : الفاكهة اليابسة .

(٢) سورة الروم - الآية ٢٢ .

يقع فعل الهداية على الذات :

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ﴾^(١) . ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدَى﴾^(٢) .

﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾^(٣) . إلى كثير من مثل هذه الآيات الكريمة ، فهداية القلب لها دلالة خاصة في مثل هذا

السياق : ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ .

فالمرغوب فيه هنا هو أفضل أنواع الهداية وأقواها ، ولذلك صُرح بلفظ القلب ، وهذا منتهى ما يطمح إليه الحى ، أن تعمر السكينة قلبه حيث يدعو كل ما حوله إلى أن يتمزق أسى ، وينصدع حزناً : ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾^(٤) .

أما من لا يرجو لقاء الله تعالى ، ولا يؤمن أن هناك يوماً آخر يجازى فيه المحسن على إحسانه ، ويعاقب المسيء على إساءته ، فإنه يظل مضطرب النفس ، حائر اللب ، لأنه - ولا شك - موقف بالموت ، فهو - دائماً - يتوقع أن يفارق النعيم الذى هو فيه ، دون أن يكون - فى عقيدته - وراء الموت نعيم آخر ، وهو يحزن لكل حادث يصيبه ، ولكل خطب يلُم به ، لأن فى كل ذلك تنغيصاً للحياة التى لا بديل لها عنده ، ولأنها آلام ليس وراء تحملها أى نفع ، ويستبد به القلق ، ويفقد سكينة النفس ، ويظل هؤلاء كما أخبر القرآن الكريم : ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ ، أى فى عمايتهم يتحIRON ويضطربون ،

(١) يونس . من الآية ٩ . (٤) سورة الأنعام - الآية ٨٢ .

(٢) سورة الكهف من الآية ١٧ .

(٣) سورة البلد الآية (١٠) .

سبقه وحققه ، كما نلاحظ أن التعليم الأول تعلق بالقرآن ، والقرآن فيه التوحيد والنبوة والعلم ، وبالبیان امتاز الإنسان عن غيره من الحيوانات ، فهو نعمة لا تقل عن نعمة الخلق ، بل لا قيمة للإنسان ما لم يكن قادراً على الإبانة عما في نفسه .

ويقول - سبحانه - وقد قضى أن يستخلف الإنسان في الأرض : ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ۝ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ الْغَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ (١) . فجعل سبحانه العلم هو السر في استخلاف الإنسان في الأرض ، وتحميلة مسئولية تعميها ، والأخذ بالأسباب التي تصلحها ، وتقيم حياة سعيدة فيها .

استخلف الله الإنسان ، وجعل السر في ذلك العلم على الرغم مما وصفت الملائكة به هذا الإنسان بأنه : ﴿يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ .

وقد يلفت النظر أن مادة (العلم) وردت في هذه الآيات سبع مرات ، ولا شك أن لذلك دلالة على مكانة العلم ، وصلته القوية باستخلاف الإنسان في الأرض .

ر (١) السورة التي تذكر فيها البقرة - الآيات ٣٠ - ٣٣ .

وفي القرآن الكريم آيات كثيرة ترفع من قدر العلم والعلماء ، وهذا ما دعا المسلمين إلى أن يبذلوا غاية جهدهم في تحصيل العلم ، وقد وصلوا من ذلك إبان نهضتهم إلى ما لم تصل إليه أمة قبلهم ، بل كانت نهضتهم العلمية في الوقت الذي كانت فيه كل الأمم حولهم تخبط في ظلمات الجهل ، وتعيش على الخرافات والأوهام التي يزينها لهم رجال الدين ، أو على التقليد الذي يرغمهم عليه أصحاب السلطان .

وقد كانت علوم العرب ومعارفهم هي النبراس الذي أضاء لقافلة البشرية الطريق في عصور النهضة الحديثة ، فقد كانت أوروبا عالة على علوم العرب ، تدرسها في جامعاتها إلى أواخر القرن السابع عشر الميلادي ، وبذلك اعترف المنصفون من كبار العلماء والباحثين الغربيين .

يقول دكاريتسكي : (إن الأبحاث الحديثة قد دلت على عظم دينيا للعلماء المسلمين الذين نشروا العلم بينما كانت أوروبا في ظلمات القرون الوسطى) .

وتقول الكاتبة الألمانية الدكتورة سيجريد هونكه : (إن هذه الطفرة العلمية الجبارة التي نهض بها أبناء الصحراء من العدم من أعجب النهضات العلمية الحقيقية في تاريخ العقل البشري ، فسيادة أبناء الصحراء التي فرضوها على الشعوب ذات الثقافات القديمة وحيدة في نوعها ، وإن الإنسان ليقف حائراً أمام هذه المعجزات العقلية الجبارة ، وإن أوروبا لتدين للعرب وللحضارة العربية ، وإن الذين الذين في عتق أوروبا وسائر القارات للعرب لكبير جداً) . وقد كان ذلك - دون أدنى شك - بفضل توجيه القرآن الكريم للإنسان « وحثه على طلب العلم » وإشادته بفضل العلماء :

﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾^(١) .
ولا يفوتنا - هنا - أن تنبه إلى خطأ كبير وقع فيه سِدَّةُ العلم
حيث ادعوا التناقض بين العلم والدين ، وعبدوا العقل والمادة ،
وزعموا أن العالم الحق لا يكون متديناً وأن المتدين لا يكون عالماً ،
ومع الأسف ردد هذا بعض شعرائنا السابقين ، فقد نسب إلى أبي
العلاء المعري قوله :

إثنان أهل الأرض : ذو عقل بلا

دين ، وآخر دین لا عقل له

ففي القرآن الكريم ما يفند هذا الزعم ، ويبطل هذه الفرية ،
فقد جمع في الآيات التي أوردتها وفي غيرها بين العلم والدين وهو
يتحدث عن خلق الإنسان وعن آياته في الكون ، وتكفي جملة
واحدة من القرآن الكريم في الرد على هؤلاء : ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ

عباده العلماء﴾ .

وتاريخ الأمة الإسلامية في أزهى عصورها أعدل شاهد على أن
العلم الصحيح ينشأ في ظلال التدين العميق الصافي .
على أن أكثر الغربيين الآن ينكرون ما كان يقوله بعض علماء
القرن التاسع عشر من العداوة بين العلم والدين .

وإذا كانت أول آية نزلت من القرآن تحدثت عن خلق
الإنسان « وأنه مخلوق من علق فليس من قبيل المصادفة أن تكون
آخر آية نزلت أو من أواخر الآيات التي نزلت تتضمن نهاية
الإنسان ، وتبين أن مصيره إلى الله ، وأن الإنسان سيوفي حسابه
كاملاً على ما عمل في حياته الدنيا :

(١) سورة المجادلة - الآية ١١ .

عن إبطال مذهب من المذاهب لا يصدر فقط عن (وجوب) ذلك عليه .

وثانياً : وقف صاحب الرأي عند فكرة واحدة هي (خلق الإنسان من طين) . ولم يحل النظر في جميع الآيات التي تحدثت عن خلق الإنسان .

ثالثاً : إذا التزم الباحث بما يقتضيه الأسلوب العربي واستخرج من القرآن الكريم ما يمليه هذا الأسلوب فقد أدى حق القرآن عليه ، وقد قام بواجب يمليه عليه الفهم الصحيح الدقيق لأسلوب القرآن الكريم .

* * *

وقد قلت أن في آية الروم دقيقة اهتدى إليها العلماء السابقون ، وأقول إنى اهتديت إلى دقيقة أخرى في آيات أخرى ، وكلتاها واضحة الدلالة في إبطال مذهب النشوء والارتقاء .

أما الدقيقة الأولى فيحدثنا الامام فخر الدين الرازي وهو يفسر هذه الآية الكريمة آية سورة الروم فيقول : (وفي الآية لطيفتان : إحداهما قوله : (إذا) وهي للمفاجأة ، يقال : خرجت فإذا أسد بالباب ، وهو إشارة إلى أن الله تعالى خلقه من تراب بكن فكان ، لا أنه صار معدناً ، ثم نباتاً ثم حيواناً ثم إنساناً ، وهذا إشارة إلى مسألة حكيمية وهي أن الله تعالى يخلق أولاً إنساناً فينبه أنه يجي حيواناً أو نامياً وغير ذلك ، لا أنه خلق أولاً حيواناً ثم يجعله إنساناً) .

ولعل الرازي يرد بذلك على ما وصل إليه علمه من قول فلاسفة الإغريق من أن الخلية أو (الأميبا) هي أصل الحيوانات حتى الإنسان . وذلك أن الأميبا تطورت إلى الإسفنج ثم نشأت

وآيات القرآن في بيان ما سخر الله للإنسان ، وما خلق وقدر
لمنافعه كثيرة : لعل هذه الآية الأخيرة من أشملها ، فإن الله ذكر فيها
كل النعم التي اشتمل عليها الكون ، والنعم التي اشتملت عليها
النفس .

ومن الآيات الجامعة - أيضاً - قوله تعالى :

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنَّجْمُ
مَسْخَرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي
الْأَرْضِ مُخْتَلَفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾^{١١}
وقبل هاتين الآيتين وبعدهما ذكر الله سبحانه نعماً كثيرة امتن بها
على عباده . ثم ختم هذه الآيات بقوله : ﴿وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا
تَحْصُوهَا﴾ .

- ٢ -

ولقد عرض القرآن الكريم شئناً كثيرة تتعلق بالإنسان منذ
تكوينه جنيناً إلى أن يفارق الحياة ، ولم يعرضها لتكون ضوابط
علمية ، أو كليات منطقية ، وإنما كان يهدف دائماً - والله أعلم
بمراده - إلى موضع العبرة والعظة ، أو إلى دلالتها على الخالق
القادر ، أو إلى توجيه الإنسان إلى خير ليفعله ، أو تنبيهه إلى شر
ليجتنبه .

من ذلك - مثلاً - الحديث عن (خلق الإنسان) وهو ما جاء في
هذه الآيات الكريمة التي اتفق جمهور العلماء على أنها أول ما نزل
من القرآن .

فقد عني القرآن بالحديث عن خلق الإنسان للاستدلال بهذا
الخلق على قدرة الله تعالى ، ولبيان إمكان البعث ، ولتنبيه الإنسان

(١) سورة النحل الآية ١٢ - ١٣ .

أما الدقيقة الثانية في قوله تعالى : ﴿إِنْ مِثْلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمِثْلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تَرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ .
 وذلك أن هنا ضميرين كلاهما يرجع إلى آدم : (خلقه - له) ،
 وليس بينهما فاصل فالذى قيل له : (كن) هو الذى خلق (من
 تراب) أى أن الواسطة معدومة بين الخلق من التراب بين وجود
 آدم - عليه السلام - .

الخلق يكون بمعنى التقدير ، وهو أحسن ما فسر به هنا ، والمعنى
 أن الله سبحانه قدر خلق آدم ، والتقدير المراد هنا معناه (إبداع
 الشيء من غير أصل ولا احتذاء) ، - وليس هذا إلا الله تعالى -
 من تراب ، وقال له كن فكان ، فلو أن الله - سبحانه - انتزع آدم
 من حيوان لقاله كما قال إنه خلق من تراب ، وذلك أن الحرف
 (من) هنا مستعمل في الابتداء أى أن ابتداء خلق آدم كان من
 تراب .

ثم هذه الماثلة بين عيسى وآدم ما المراد بها ؟ عيسى خلق من غير
 أب والنصارى يزعمون أنه - لذلك - ابن الله فيرد عليهم القرآن بأن
 من البشر - بل أبا البشر - خلق من غير أب وأم ، ولم يدع أحد أنه
 ابن الله ، ولو كان آدم متطوراً عن زاحفة أو سمكة أو عن قرد لما كان
 بينه وبين عيسى هذه المثلية التى يحتج بها القرآن ، لأن هذه
 المخلوقات من أب وأم ، والقرآن الكريم حدد المثلية فقال عن آدم
 (خلقه من تراب) أى من غير سلف له من الأحياء .

على أن ما وقف عنده الأستاذ العقاد فيه الحجة البالغة ، ولكنه
 لم يقع عليها ، أو لم يشأ أن يتبينها أو يبينها ليجنبها ، ذلك أنه اقتصر

(١) ذكر ذلك مجد الدين الفيروز أبادى فى كتابه : (بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب
 العزيز ج ٢ . ص ٥٦٦ - نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - بالقاهرة .

انتشر في أوروبا ما سمي بمذهب (النشوء والارتقاء) وخلاصته أن الإنسان لم يخلق أولاً إنساناً وإنما تطور عن (القردة السيامية) ، وذلك بفعل الانتخاب الطبيعي ، وينسب إلى عالم من علمائهم ، ويقرن به فيقال : (مذهب داروين) ، وقد أبطل هذا المذهب بعد داروين فلاسفة أوروبيون كثيرون حتى قيل إن هذا المذهب أصبح غير ذي موضوع .

ويرى بعض المفكرين من المسلمين أن نسكت عن دلالة من القرآن تبطل هذا المذهب قال : (ومذهب التطور - خاصة فيما يتعلق بتحول الأنواع - لم يثبت بالدليل القاطع لأن أنصاره لم يذكروا حتى الآن حيواناً واحداً تحول من نوع إلى نوع بفعل الانتخاب الطبيعي ، أو بفعل تنازع البقاء وبقاء الأصلح ، ولكن بطلان القول بهذا الانتخاب لم يثبت - كذلك - بالدليل القاطع على وجه من الوجوه ، وليس في القرآن ما يوجب علينا أن نقول ببطلان الانتخاب الطبيعي ؛ لأن خلق الإنسان من الطين لا ينقضي التحول إلى غير الطين ، ولا يوجب علينا القول بكيفية الخلق من الطين على صورة من صور التركيب وإنما نعلم من القرآن أن الله بدأ خلق الإنسان من طين : ﴿ثُمَّ جَعَلْ نَسْلَهُ مِنْ سَلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ﴾ ، وفي آية أخرى : ﴿مِنْ سَلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾^(١) . فلا اختلاف بين هذا وبين التحول الذي يثبت - إذا ثبت - على وجه من الوجوه»^(٢) .

فأولاً : حديث (الوجوب) ليس وارداً هنا فحين يتكلم الباحث

(١) سورة السجدة - الآية ٨ .

(٢) سورة المؤمنون الآية ١٢ .

(٣) عباس محمود العقاد - الإنسان في القرآن الكريم ص ١٧٥ - ١٧٦ . طبعة دار الهلال .

أما الدقيقة الثانية ففي قوله تعالى : ﴿إِنْ مِثْلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمِثْلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تَرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ .
 وذلك أن هنا ضميرين كلاهما يرجع إلى آدم : (خلقه - له) ،
 وليس بينهما فاصل فالذى قيل له : (كن) هو الذى خلق (من
 تراب) أى أن الواسطة معدومة بين الخلق من التراب بين وجود
 آدم - عليه السلام - .

الخلق يكون بمعنى التقدير ، وهو أحسن ما فسر به هنا ، والمعنى
 أن الله سبحانه قدر خلق آدم ، والتقدير المراد هنا معناه (إبداع
 الشيء من غير أصل ولا احتذاء) ، - وليس هذا إلا الله تعالى -
 من تراب ، وقال له كن فكان ، فلو أن الله - سبحانه - انتزع آدم
 من حيوان لقاله كما قال إنه خلق من تراب ، وذلك أن الحرف
 (من) هنا مستعمل فى الابتداء أى أن ابتداء خلق آدم كان من
 تراب .

ثم هذه الماثلة بين عيسى وآدم ما المراد بها ؟ عيسى خلق من غير
 أب والنصارى يزعمون أنه - لذلك - ابن الله فيرد عليهم القرآن بأن
 من البشر - بل أبا البشر - خلق من غير أب وأم ، ولم يدع أحد أنه
 ابن الله ، ولو كان آدم متطوراً عن زاحفة أو سمكة أو عن قرد لما كان
 بينه وبين عيسى هذه المثلية التى يحتج بها القرآن ، لأن هذه
 المخلوقات من أب وأم ، والقرآن الكريم حدد المثلية فقال عن آدم
 (خلقه من تراب) أى من غير سلف له من الأحياء .

على أن ما وقف عنده الأستاذ العقاد فيه الحجة البالغة ، ولكنه
 لم يقع عليها ، أو لم يشأ أن يتبينها أو يبينها ليجنبها ، ذلك أنه اقتصر

(١) ذكر ذلك مجد الدين الفيروز أبادى فى كتابه : (بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب
 العزيز ج ٢ . ص ٥٦٦ - نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - بالقاهرة .

الحيوانات الرخوة من الإسفنج بطريق الارتقاء ، ثم الحيوانات القشرية ، ثم الفقريات ، ثم الأسماك ، ثم الزواحف ، ثم الطيور ، ثم الثدييات ، ثم الإنسان .

ولتوضيح كلام الفخر - وإن كان واضحاً - أقول إن الآية جاء فيها الظرف إذا ومعروف في العربية أن هذا اللفظ يفيد المفاجأة ، تقول : خرجت فإذا الجوبارد ، وألفته فإذا هو كتاب رائع ، أى إنك فوجئت عند أول لحظة من خروجك ببرودة الجو ، وعند انتهائك من تأليف الكتاب بروعته .

وقياساً على هذا يكون معنى : «إذا أنتم بشرٌ» أنكم فاجأتم وقت كونكم بشراً تنتشرون في الأرض ، ومعناها أيضاً أن مجيئكم بشراً كان نتيجة مباشرة لخلقكم من تراب ، فالإنسان خلق - بادية ذى بدء - إنساناً .

ولم يكن الفخر الرازى ولا غيره من العلماء الذين تنهوا لهذه الدقيقة - أو اللطيفة كما يقول الفخر - يتوقعون أنه سيجيء بعد قرون من ينكر هذه الحقيقة ويزعم أن الإنسان كان في الأصل قرداً ، ويجعل ذلك نظرية يسميها : (أصل الأنواع) .

وربما أكد هذا الاستخراج قول الله تعالى : ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾^(١) .

وذلك أن : «أحسن تقويم» مرتبط مباشرة بخلق الإنسان فليس بينها زمن أو أزمنة يكون فيها هذا المخلوق قرداً ثم يصير إنساناً^(٢) .

(١) . سورة التين - الآية ٤ .

(٢) يرى دارون وأتباعه أن التطور الذى زعموه يحدث على الألوف أو الملايين من السنين « ويرى آخرون أن آدم نشأ في الأرض خلية ثم صار إنساناً بعد خمسة آلاف سنة - فأى - رجم بالغيب هذا وذاك !

عن إبطال مذهب من المذاهب لا يصدر فقط عن (وجوب) ذلك عليه .

وثانياً : وقف صاحب الرأي عند فكرة واحدة هي (خلق الإنسان من طين) . ولم يحل النظر في جميع الآيات التي تحدثت عن خلق الإنسان .

ثالثاً : إذا التزم الباحث بما يقتضيه الأسلوب العربي واستخرج من القرآن الكريم ما يمليه هذا الأسلوب فقد أدى حق القرآن عليه ، وقد قام بواجب يمليه عليه الفهم الصحيح الدقيق لأسلوب القرآن الكريم .

* * *

وقد قلت أن في آية الروم دقيقة اهتدى إليها العلماء السابقون ، وأقول إنى اهتديت إلى دقيقة أخرى في آيات أخرى ، وكلتاها واضحة الدلالة في إبطال مذهب النشوء والارتقاء .

أما الدقيقة الأولى فيحدثنا الامام فخر الدين الرازي وهو يفسر هذه الآية الكريمة آية سورة الروم فيقول : (وفي الآية لطيفتان : إحداهما قوله : (إذا) وهي للمفاجأة ، يقال : خرجت فإذا أسد بالباب ، وهو إشارة إلى أن الله تعالى خلقه من تراب بكن فكان ، لا أنه صار معدناً ، ثم نباتاً ثم حيواناً ثم إنساناً ، وهذا إشارة إلى مسألة حكيمية وهي أن الله تعالى يخلق أولاً إنساناً فينبه أنه يجي حيواناً أو نامياً وغير ذلك ، لا أنه خلق أولاً حيواناً ثم يجعله إنساناً) .

ولعل الرازي يرد بذلك على ما وصل إليه علمه من قول فلاسفة الإغريق من أن الخلية أو (الأميبا) هي أصل الحيوانات حتى الإنسان . وذلك أن الأميبا تطورت إلى الإسفنج ثم نشأت

على قوله تعالى : ﴿ثُمَّ جَعَلْ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ﴾ « ولو ذكر الآية التي قبلها لوجد فيها الحجة : ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾ »

والظاهر أن المراد بالإنسان في هذه الآية آدم - عليه السلام - والدلالة هنا هو أن الذي بدىء خلقه من طين هو الإنسان فالتصريح بهذا اللفظ لا يدع مجالاً للغموض في الربط المباشر بين الطين والإنسان .

وآيات أخرى واضحة الدلالة كهذه الآية ، منها قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ﴾ ^(١) وقوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ ^(٢) .

فالربط بين البشرية والطين ، وبينها وبين الصلصال على أن كلا منهما معدنها وأصلها ، وأنها عنها نشأت ، ومنها أخذت لا يدع مجالاً لرأى آخر يقول بأن بينهما واسطة أو وسائط .

والحسم هنا في ذكر (البشر) و(الإنسان) مقترنين بأصلهما المباشر « وهى الآيات التى أهملها من لا يجزءون على القول بأن القرآن الكريم يدفع القول بنظرية (التطور) سواء قال بها دارون أو هذب منها غيره » ^(٣) .

(١) سورة السجدة - الآية ٧ .

(٢) سورة (ص) - الآية ٧١ .

(٣) سورة الحجر - الآية ٢٨ .

(٤) قرأت في إحدى المجلات الدينية (مجلة الأزهر - ذو القعدة سنة ١٣٩٦هـ) لأحد العلماء الأفاضل (الأستاذ مصطفى الطين) أن بعض المفكرين المصريين المعاصرين قال إن آدم نشأ في الأرض خلية وقد تدرج منها عبر خمسة آلاف سنة حتى وصل إلى أحسن تقوم بهداية الله ، وتطويره إياه - فالتطور - على هذا - ليس عضوا ذاتيا بفعل الله وخلقته .

عن إبطال مذهب من المذاهب لا يصدر فقط عن (وجوب) ذلك عليه .

وثانياً : وقف صاحب الرأي عند فكرة واحدة هي (خلق الإنسان من طين) . ولم يحل النظر في جميع الآيات التي تحدثت عن خلق الإنسان .

ثالثاً : إذا التزم الباحث بما يقتضيه الأسلوب العربي واستخرج من القرآن الكريم ما يمليه هذا الأسلوب فقد أدى حق القرآن عليه ، وقد قام بواجب يمليه عليه الفهم الصحيح الدقيق لأسلوب القرآن الكريم .

* * *

وقد قلت أن في آية الروم دقيقة اهتدى إليها العلماء السابقون ، وأقول إنى اهتديت إلى دقيقة أخرى في آيات أخرى ، وكلتاها واضحة الدلالة في إبطال مذهب النشوء والارتقاء .

أما الدقيقة الأولى فيحدثنا الامام فخر الدين الرازي وهو يفسر هذه الآية الكريمة آية سورة الروم فيقول : (وفي الآية لطيفتان : إحداهما قوله : (إذا) وهي للمفاجأة ، يقال : خرجت فإذا أسد بالباب ، وهو إشارة إلى أن الله تعالى خلقه من تراب بكن فكان ، لا أنه صار معدناً ، ثم نباتاً ثم حيواناً ثم إنساناً ، وهذا إشارة إلى مسألة حكيمية وهي أن الله تعالى يخلق أولاً إنساناً فينبه أنه يجي حيواناً أو نامياً وغير ذلك ، لا أنه خلق أولاً حيواناً ثم يجعله إنساناً) .

ولعل الرازي يرد بذلك على ما وصل إليه علمه من قول فلاسفة الإغريق من أن الخلية أو (الأميبا) هي أصل الحيوانات حتى الإنسان . وذلك أن الأميبا تطورت إلى الإسفنج ثم نشأت

كان مؤمناً ، وهؤلاء قد جهدوا في إذاعة نظرياتهم الفاسدة بكل ألوان الإذاعات فطافت بالعالم كله ، فالبيان ليس لهم فحسب وإنما لكل إنسان سمع بمقاتلتهم آمن بها أو أنكرها .

ثانياً : إن من الذين يتسمون بالإيمان من دان بمذاهبهم ، وإن كان يتحفظ حين يؤمن بها فيرفض منها مظهرها الإلحادى ، وهؤلاء في حاجة إلى من يذكرهم بأن في قرآنهم ما ينكر عليهم تبعيتهم لهؤلاء .

ثالثاً : إن هؤلاء الفلاسفة الذين أبطلوا نظرية دارون أو نظرية فرويد بالحجج العقلية ليسوا كلهم منكرين لوجود الله ، بل عند بعضهم أصل الإيمان فحين نطلع هؤلاء على ما في كتابنا ربما وجدوا في ذلك ما يعينهم على الإمعان في إبطال هذا المذهب أو ذاك ، بل ربما - مع المواجهة بين أدلتهم العقلية وما يبلغهم من أدلة كتابنا - يؤمن بعضهم به .

رابعاً : إننا حين نحتج بالقرآن لا نقصد فقط الاختصار على موضع الحجة ، وإنما نريد من وراء ذلك ما هو أعم وأشمل ، نريد أن نلفت أنظار العالم - وبخاصة أصحاب الفكر والرأى - إلى أن لنا كتاباً صادقاً ، مصداقاً لما بين يديه من الكتب ، يقول الحق ، ويهدى السبيل ، وقد يرغب ذو فطنة وإيثار للحق أن يدخل معنا في حوار حول هذا الذى ندعو إليه ، وحينئذ سنثبت له بالأدلة الحاسمة أن هذا كتاب السماء ، وأن كل ما فيه صدق وحق ، وربما حبيب إليه ذلك الإيمان ، وزينه في قلبه .

خامساً : أن أصحاب الكتب السماوية الأخرى لا يفتأون يحتجون بما جاء فيها حتى علينا نحن المسلمين ، وهم على يقين أننا على يقين أن هذه الكتب محرفة وأن الذى بين أيديهم منها ليس هو

والظلمات الثلاث هي : البطن والرحم والمشيمة (الكيس الذي يغلف به الجنين) . والقرار المكين هو الرحم ، وهو محصن تحصيئاً محكماً داخل الحوض الذي أعده الله تعالى لحفظه .

والقرار مصدر وصف به المكان وهو الرحم مبالغة ، كما وصف الرحم بالمكانة وهي صفة للنطفة على سبيل المبالغة أيضاً ، وأصل الكلام جعل نطفة في مستقر تمكنت فيه النطفة ، وجاء الكلام على هذا النظم مبالغة ، وهذا من أسرار الأسلوب القرآني البديع العجيب .

ويؤخذ من كلام الأطباء في وصف الرحم أن الله تعالى حاطه بكل أسباب الراحة ، وحصنه بأقوى وسائل الوقاية .

وتلك الحقائق العلمية التي تضمنتها هاتان الكلمتان : ﴿ظلمات ثلاث﴾ والكلمتان : ﴿قرار مكين﴾ لا يمكن أن يهتدى إليها - في عهد الرسالة المحمدية - بشر ، فهي تنفي أن يكون القرآن من صنع محمد - كما يقول بعض الجاهلين ، وكما يفترى بعض الحاقدين على الإسلام ورسوله ، وعلى المسلمين - .

وأما أطوار الإنسان في الحياة ، بعد الأمد الذي جدد له في بطن أمه فهي وإن كانت معلومة إلا أن القرآن يذكرنا لينبه الإنسان - تنبيهاً دائماً - إلى أنه لا يبقى على حال واحدة ، وأن له نهاية هي اليقين الذي يشبه الشك ، وليذكره أن البعث حق :

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تَرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّن عِلْقَةٍ ثُمَّ مِّن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ لَّئِن لَّكُمْ وَفْقُرَى الْآرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّن يَتُوفَى وَمِنْكُمْ مَّن يُرْدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعَمَرِ

البعث : ﴿أحسب الإنسان ألن نجمع عظامه * بلى قادرين على أن نسوي بنانه * بل يريد الإنسان ليفجر أمامه * يسأل أيان يوم القيامة﴾ .

فالذى خلق من هذه النطفة التى تراق بشراً ، وحوله من خلية صغيرة إلى إنسان يتحرك ويعمل ويعقل - قادر - ولا شك - على أن يعيده مرة أخرى ، كما قال تعالى : ﴿وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم﴾ (١) .

فلا شك أن إعادة البشء الذى تبدعه على غير مثال سابق أهون عليك - فى نظرك - من بدئه ، وهذا مثل ضربه الله لنا ، وإلا فلا هين ولا أهون أمام قدرته تعالى ، فله المثل الأعلى . وفى آيات سورة (القيامة) التى بدئت بها دقيقة فى قوله تعالى : ﴿بلى قادرين على أن نسوي بنانه﴾ .

فقد قال المفسرون : إنما خص البنان - وهى أطراف الأصابع - لأنها آخر ما يخلق فى الإنسان ، ولأنها صغار لطاف ، فالذى يقدر على إعادتها وتسويتها يقدر على ما هو أكبر منها وأكثر تعقيداً .

ولكن الذى فى الآية ليس إعادة البنان وإنما هو (تسويتها) ، وإن كانت التسوية تستلزم الإعادة ، فلا جرم أن يكون وراء التعبير بالتسوية سرٌ عظيم لا يكون وراء لفظ الإعادة ، وهذا ما كشف عنه العلم الحديث .

فقد أكدت الأبحاث العلمية الحديثة هذه الدقيقة فى الآية

(١) سورة الروم - الآية ٢٧ .

والظلمات الثلاث هي : البطن والرحم والمشيمة (الكيس الذي يغلف به الجنين) . والقرار المكين هو الرحم ، وهو محصن تحصيئاً محكماً داخل الحوض الذي أعده الله تعالى لحفظه .

والقرار مصدر وصف به المكان وهو الرحم مبالغة ، كما وصف الرحم بالمكانة وهي صفة للنطفة على سبيل المبالغة أيضاً ، وأصل الكلام جعل نطفة في مستقر تمكنت فيه النطفة ، وجاء الكلام على هذا النظم مبالغة ، وهذا من أسرار الأسلوب القرآني البديع العجيب .

ويؤخذ من كلام الأطباء في وصف الرحم أن الله تعالى حاطه بكل أسباب الراحة ، وحصنه بأقوى وسائل الوقاية .

وتلك الحقائق العلمية التي تضمنتها هاتان الكلمتان : ﴿ظلمات ثلاث﴾ والكلمتان : ﴿قرار مكين﴾ لا يمكن أن يهتدى إليها - في عهد الرسالة المحمدية - بشر ، فهي تنفي أن يكون القرآن من صنع محمد - كما يقول بعض الجاهلين ، وكما يفترى بعض الحاقدين على الإسلام ورسوله ، وعلى المسلمين - .

وأما أطوار الإنسان في الحياة ، بعد الأمد الذي جدد له في بطن أمه فهي وإن كانت معلومة إلا أن القرآن يذكرنا لينبه الإنسان - تنبيهاً دائماً - إلى أنه لا يبقى على حال واحدة ، وأن له نهاية هي اليقين الذي يشبه الشك ، وليذكره أن البعث حق :

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تَرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّن عِلْقَةٍ ثُمَّ مِّن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ لِّنَبِّئَنَّ لَكُمْ وَنَقَرَفِي الْأَرْحَامَ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّن يَتُوفَى وَمِنْكُمْ مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ

بمتع الحياة ، وغرائر تساعد - إن اعتدلت - على إصلاح شئونه ،
وإدرك مطالبه ، والسعي الدائب لتحقيق مآربه .

وقد منحه الله لساناً ناطقاً يبين به عما في نفسه من مطالب
الحياة ، ويعبر به عما يجيش به صدره من معاني إنسانية ، ويتفاهم به
مع الآخرين من بني جنسه .

ولقد حدثنا القرآن الكريم عن الأطوار التي يمر بها الإنسان في
بطن أمه ، وعن الأطوار التي يمر بها بعد أن يستقبل هذه الحياة ،
فقال تعالى :

﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين * ثم جعلناه نطفة في
قرار مكين * ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا
المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله
أحسن الخالقين﴾ (١) .

وهذه الأطوار كانت مجهولة كل الجهل في عهد نزول القرآن ،
ولم يعرفها العلم إلا بعد زمن طويل ، وهذا يدل على أن القرآن من
عند الله تعالى ، لأنه لم يكن لبشر في ذلك التاريخ أن يحدث بهذا
الذي اشتملت عليه الآيات وكشفه العلم بعد تقدم فن التفسير .
وقد وصف الله - سبحانه - رحم الأم في هذه الآيات بأنه :
﴿في قرار مكين﴾ كما جاء في آية أخرى أن الجنين يتخلق في :
﴿ظلمات ثلاث﴾ :

﴿خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها وأنزل لكم من
الأنعام ثمانية أزواج يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق
في ظلمات ثلاث﴾ (٢) .

(١) المؤمنون - الآيات ١٢ ، ١٣ ، ١٤ .

(٢) سورة الزمر - الآية ٦ .

أما الدقيقة الثانية ففي قوله تعالى : ﴿إِنْ مِثْلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمِثْلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تَرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ .
 وذلك أن هنا ضميرين كلاهما يرجع إلى آدم : (خلقه - له) ،
 وليس بينهما فاصل فالذى قيل له : (كن) هو الذى خلق (من
 تراب) أى أن الواسطة معدومة بين الخلق من التراب بين وجود
 آدم - عليه السلام - .

الخلق يكون بمعنى التقدير ، وهو أحسن ما فسر به هنا ، والمعنى
 أن الله سبحانه قدر خلق آدم ، والتقدير المراد هنا معناه (إبداع
 الشيء من غير أصل ولا احتذاء) ، - وليس هذا إلا الله تعالى -
 من تراب ، وقال له كن فكان ، فلو أن الله - سبحانه - انتزع آدم
 من حيوان لقاله كما قال إنه خلق من تراب ، وذلك أن الحرف
 (من) هنا مستعمل فى الابتداء أى أن ابتداء خلق آدم كان من
 تراب .

ثم هذه الماثلة بين عيسى وآدم ما المراد بها ؟ عيسى خلق من غير
 أب والنصارى يزعمون أنه - لذلك - ابن الله فيرد عليهم القرآن بأن
 من البشر - بل أبا البشر - خلق من غير أب وأم ، ولم يدع أحد أنه
 ابن الله ، ولو كان آدم متطوراً عن زاحفة أو سمكة أو عن قرد لما كان
 بينه وبين عيسى هذه المثلية التى يحتج بها القرآن ، لأن هذه
 المخلوقات من أب وأم ، والقرآن الكريم حدد المثلية فقال عن آدم
 (خلقه من تراب) أى من غير سلف له من الأحياء .

على أن ما وقف عنده الأستاذ العقاد فيه الحججة البالغة ، ولكنه
 لم يقع عليها ، أو لم يشأ أن يتبينها أو يبينها ليجنبها ، ذلك أنه اقتصر

(١) ذكر ذلك مجد الدين الفيروز أبادى فى كتابه : (بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب
 العزيز ج ٢ . ص ٥٦٦ - نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - بالقاهرة .

لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً (١) .

[وأما بعد] :

فهذا بيان موجز لكلمة واحدة من هذه الكلمات الكريمة التي
بدى بها نزول القرآن : ﴿خلق الإنسان من علق﴾

وبعض المحدثين يذكر هذه الآيات التي بدى بها نزول القرآن
ليستدل بها على عناية القرآن بالعلم ، والأمر كذلك ، ولكن في
الآيات - كما رأينا - قضايا أخرى غير قضية العلم .

كما أن بعض المحدثين يقف عند تكرار الفعل : «اقرأ» ليستدل
بذلك على إشادة القرآن بالقراءة ، والأمر - أيضاً - كذلك - ولكن
النظر العابر ينبه إلى أن كل القضايا التي ذكرت في هذه الآيات
أكدت بالتكرار .

فالألوهية تكررت في الآيات تصريحاً وإشارة عشر مرات ،
والنبوة أشير إليها أربع مرات ، وذكر فعل الخلق ، وفعل العلم
مرتين .

ولو أني أطلت نفس القول ووفيت المقام حقه في شرح هذه
الآيات الكريمة ولو أني وقفت مع كل كلمة من كلماتها وقفة المتأمل
الدارس لكان من ذلك كتابٌ بعيد ما بين الدفتين .

وهكذا نرى أن هذه الآيات تضمنت أهم مقاصد القرآن :
الألوهية والنبوة والإنسان والعلم .

وإذا كنا نستدل بالتكرار على التوكيد حق لنا أن نقول إن أهم
هذه المقاصد هي الألوهية ، ثم النبوة ، ويستوى خلق الإنسان

(١) سورة الحج - الآية ٥ .

والظلمات الثلاث هي : البطن والرحم والمشيمة (الكيس الذي يغلف به الجنين) . والقرار المكين هو الرحم ، وهو محصن تحصيئاً محكماً داخل الحوض الذي أعده الله تعالى لحفظه .

والقرار مصدر وصف به المكان وهو الرحم مبالغة ، كما وصف الرحم بالمكانة وهي صفة للنطفة على سبيل المبالغة أيضاً ، وأصل الكلام جعل نطفة في مستقر تمكنت فيه النطفة ، وجاء الكلام على هذا النظم مبالغة ، وهذا من أسرار الأسلوب القرآني البديع العجيب .

ويؤخذ من كلام الأطباء في وصف الرحم أن الله تعالى حاطه بكل أسباب الراحة ، وحصنه بأقوى وسائل الوقاية .

وتلك الحقائق العلمية التي تضمنتها هاتان الكلمتان : ﴿ظلمات ثلاث﴾ والكلمتان : ﴿قرار مكين﴾ لا يمكن أن يهتدى إليها - في عهد الرسالة المحمدية - بشر ، فهي تنفي أن يكون القرآن من صنع محمد - كما يقول بعض الجاهلين ، وكما يفترى بعض الحاقدين على الإسلام ورسوله ، وعلى المسلمين - .

وأما أطوار الإنسان في الحياة ، بعد الأمد الذي جدد له في بطن أمه فهي وإن كانت معلومة إلا أن القرآن يذكرنا لينبه الإنسان - تنبيهاً دائماً - إلى أنه لا يبقى على حال واحدة ، وأن له نهاية هي اليقين الذي يشبه الشك ، وليذكره أن البعث حق :

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنْ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لَنَبَيِّنَ لَكُمْ وَنَقْرَفِ الْأَرْحَامَ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يَتُوفَى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ

يتحدث صاحب الكتاب عن (براعة الاستهلال) فيكون مما
 قاله : (والعلم الأسنى في ذلك سورة الفاتحة التي هي مطلع القرآن
 فإنها مشتملة على جميع مقاصده) .
 ثم ينقل عن (شعب الإيمان) للبيهقي قولاً ينتهي بسنده إلى
 الحسن - رحمه الله - خلاصته أن العلوم التي احتوى عليها القرآن ،
 وقامت بها الأديان أربعة هي :

معرفة الله وصفاته ، ومعرفة النبوات ، ومعرفة المعاد ، وعلم
 العبادات ، وعلم السلوك ، وعلم القصص .

قال : وكلها اشتملت عليها سورة الفاتحة فجمعت بذلك
 مقاصد القرآن ، وهذا هو الغاية في براعة الاستهلال .

ثم قال - وهذا موضع العجب والسرور معاً - (وكذلك أول
 سورة «اقرأ» فإنها نظير ما اشتملت عليه الفاتحة من براعة
 الاستهلال ؛ لكونها أول ما نزلت من القرآن ، فإن فيها الأمر
 بالقراءة ، والبدء فيها باسم الله ، وفيها الإشارة إلى علم الأحكام ،
 وفيها ما يتعلق بتوحيد الرب ، وإثبات ذلك ، وصفاته : من صفة
 ذات ، وصفة فعل . وفي هذه الإشارة إلى أصول الدين ، وفيها ما
 يتعلق بالأخبار من قوله : ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَم﴾ .
 ولهذا قيل : إنها جديرة أن تسمى : (عنوان القرآن) ؛ لأن
 عنوان الكتاب يجمع مقاصده بعبارة وجيزة في أوله (١) .

* * *

وهنا أمور أرى من الضروري التنبيه إليها :

١ - اختلط على كلام المؤلف فلم أدر هل هذه العبارات الأخيرة

(١) السيد علي صدر الدين بن معصوم المدني (١٠٥٦ - ١١٢٠هـ) في كتابه : (أنوار
 الربيع في أنواع البديع) .

وإذا كان الوأد قد مضى مع انبثاق فجر الإسلام ، وزوال
ليل الجاهلية فقد بقيت رواسبه في عصرنا . في صورة جديدة
من القتل ، يشمل البنين والبنات « ذلك هو إسقاط الجنين
قبل أن يكتمل (الاجهاض خوف العار أو الفقر ، أو رغبة في
المحافظة على جمال المرأة ، ومع الأسف فقد أباحت بعض
القوانين الوضعية دون ضرورة ملحة ، فأتاحت للفئة الانحراف
من أوسع الأبواب ، وأنشأت مشكلة خطيرة أخرى حين
يتعذر الاجهاض ، أو تأباه الأم « تلك هي مشكلة أو مأساة
الملقطاء .

ولو كانت شريعة الله هي الموجهة لسلوك الناس ، ولو
كانت الضمائر الدينية حية « ولو كان المجتمع فاضلاً لأمكن كل
المخاطر الفردية والاجتماعية .

الفصل الرابع

ضلالة حذر منها القرآن

وإذ كنا بصدد خلق الإنسان وحديث القرآن عنه اتجه البحث إلى ضلالة قديمة حديثة يتحتم على المجتمعات الراقية .
والمسلمة - بخاصة - أن تتخلص منها .
سوى الله تعالى بين الذكر والأنثى في كثير من الحقوق والواجبات ، ولم يفرق بينهما في الجزاء على العمل ﴿من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون﴾^(١) .

﴿من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾^(٢) .
وقد امتنَّ الله - سبحانه وتعالى - على الأبوين بكل من الابن والبنات وذكر القرآن الكريم أن كلا منهما هبة من الله ، وأن الله - وحده - هو الواهب ، فلا فضل للرجل في إنجاب البنين ، ولا ذنب للمرأة في ولادة البنات :

﴿لله مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذَّكَورَ أَوْ يَزْوَجَهُمْ ذَكَرًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾^(٣) .
ولكن فريقاً من عرب الجاهلية ومن جهلاء العصور المختلفة

(١) الأنعام ١٦٠ .

(٢) النحل - الآية ٩٧ .

(٣) سورة الشورى - الآيتان : (٤٩ - ٥٠) .

أما الدقيقة الثانية في قوله تعالى : ﴿إِنْ مِثْلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمِثْلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تَرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ .
 وذلك أن هنا ضميرين كلاهما يرجع إلى آدم : (خلقه - له) ،
 وليس بينهما فاصل فالذى قيل له : (كن) هو الذى خلق (من
 تراب) أى أن الواسطة معدومة بين الخلق من التراب بين وجود
 آدم - عليه السلام - .

الخلق يكون بمعنى التقدير ، وهو أحسن ما فسر به هنا ، والمعنى
 أن الله سبحانه قدر خلق آدم ، والتقدير المراد هنا معناه (إبداع
 الشيء من غير أصل ولا احتذاء) ، - وليس هذا إلا الله تعالى -
 من تراب ، وقال له كن فكان ، فلو أن الله - سبحانه - انتزع آدم
 من حيوان لقاله كما قال إنه خلق من تراب ، وذلك أن الحرف
 (من) هنا مستعمل في الابتداء أى أن ابتداء خلق آدم كان من
 تراب .

ثم هذه الماثلة بين عيسى وآدم ما المراد بها ؟ عيسى خلق من غير
 أب والنصارى يزعمون أنه - لذلك - ابن الله فيرد عليهم القرآن بأن
 من البشر - بل أبا البشر - خلق من غير أب وأم ، ولم يدع أحد أنه
 ابن الله ، ولو كان آدم متطوراً عن زاحفة أو سمكة أو عن قرد لما كان
 بينه وبين عيسى هذه المثلية التى يحتج بها القرآن ، لأن هذه
 المخلوقات من أب وأم ، والقرآن الكريم حدد المثلية فقال عن آدم
 (خلقه من تراب) أى من غير سلف له من الأحياء .

على أن ما وقف عنده الأستاذ العقاد فيه الحجة البالغة ، ولكنه
 لم يقع عليها ، أو لم يشأ أن يتبينها أو يبينها لئلا يقتصر

(١) ذكر ذلك مجد الدين الفيروز أبادى فى كتابه : (بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب
 العزيز ج ٢ . ص ٥٦٦ - نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - بالقاهرة .

حمزة حين ولدت بنتاً فهجرها زوجها :
 ما لأبي حمزة لا يأتينا يظل في البيت الذي يلينا
 غضبان ألا نلد البنينا والله ما ذلك في أيدينا
 ونحن كالأرض لزارعينا نبت ما قد بذروه فينا

وقد نهى القرآن الكريم عن هذا السلوك الذي يتنافى مع
 الفطر السليمة ، ولا يتفق وعاطفة الأبوة الكريمة : ﴿ولا
 تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم
 كان خطئاً كبيراً﴾ . ﴿ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن
 نرزقكم وإياهم﴾ .

فلا الفقر ولا الخوف منه يسوغ لهم أن يقتلوا أولادهم .
 ومن روائع القرآن - هنا - أنه حين كان الفقر حقيقة واقعة
 بالآباء قدم رزقهم على رزق الأولاد : ﴿نحن نرزقكم
 وإياهم﴾ . وحين كان الأمر مجرد خشية من الفقر قدم الآباء
 على الآباء : ﴿نحن نرزقهم وإياكم﴾ .

وقد حذر القرآن من الوأد ، وأخبر أن الموءودة ستسأل يوم
 القيامة عن الذنب الذي قتلت من أجله : ﴿وإذا الموءودة
 سُئلت : بأي ذنب قتلت﴾ .

وهو سؤال - حينذاك - لا يطلب له جواب إلا الحزى
 والخسران والعذاب الأليم للوائدين .

(١) كان العرب يكتون الرجل بالوند وإن لم يكن له ، كما كانوا يكتون المرأة أيضا
 ذلك كما قيل : (وكتبتها عمرو وليس لها عمرو) .

(٢) الاسراء - الآية ٣١ .

(٣) الأنعام - من الآية ١٥١ .

أما الدقيقة الثانية في قوله تعالى : ﴿إِنْ مِثْلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمِثْلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تَرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ .
 وذلك أن هنا ضميرين كلاهما يرجع إلى آدم : (خلقه - له) ،
 وليس بينهما فاصل فالذى قيل له : (كن) هو الذى خلق (من
 تراب) أى أن الواسطة معدومة بين الخلق من التراب بين وجود
 آدم - عليه السلام - .

الخلق يكون بمعنى التقدير ، وهو أحسن ما فسر به هنا ، والمعنى
 أن الله سبحانه قدر خلق آدم ، والتقدير المراد هنا معناه (إبداع
 الشيء من غير أصل ولا احتذاء) ، - وليس هذا إلا الله تعالى -
 من تراب ، وقال له كن فكان ، فلو أن الله - سبحانه - انتزع آدم
 من حيوان لقاله كما قال إنه خلق من تراب ، وذلك أن الحرف
 (من) هنا مستعمل في الابتداء أى أن ابتداء خلق آدم كان من
 تراب .

ثم هذه الماثلة بين عيسى وآدم ما المراد بها ؟ عيسى خلق من غير
 أب والنصارى يزعمون أنه - لذلك - ابن الله فيرد عليهم القرآن بأن
 من البشر - بل أبا البشر - خلق من غير أب وأم ، ولم يدع أحد أنه
 ابن الله ، ولو كان آدم متطوراً عن زاحفة أو سمكة أو عن قرد لما كان
 بينه وبين عيسى هذه المثلية التى يحتاج بها القرآن ، لأن هذه
 المخلوقات من أب وأم ، والقرآن الكريم حدد المثلية فقال عن آدم
 (خلقه من تراب) أى من غير سلف له من الأحياء .

على أن ما وقف عنده الأستاذ العقاد فيه الحجة البالغة ، ولكنه
 لم يقع عليها ، أو لم يشأ أن يتبينها أو يبينها لخبينها ، ذلك أنه اقتصر

(١) ذكر ذلك مجد الدين الفيروز أبادى فى كتابه : (بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب
 العزيز ج ٢ . ص ٥٦٦ - نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - بالقاهرة .

الباب الثالث

الفصل الأول

مقاصد القرآن الكريم

يقول الله تعالى : ﴿ مَا قَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ ^(١) ويقول سبحانه : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ ^(٢) ويقول عز وجل : ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِّينَ وَالْحِسَابِ وَكُلُّ شَيْءٍ فَضْلُنَا مِنْ تَفْصِيلٍ ﴾ ^(٣) .

هذه الآيات الثلاث تفيد أن الله - سبحانه وتعالى - أنزل القرآن الكريم للغاية التي أرادها من إنزاله ، وهي هداية البشرية الضالة ، وإنقاذها مما تردت فيه من ضلالات وأوهام وأباطيل ، وعلاجها مما حل بأبنائها من أمراض الجهل والسفه ، وطغيان الأقوياء ، وطيش الحمقى والعابثين ، وليرسم للناس الطريق القويم لحياة فاضلة يسودها العدل والحرية والمساواة ، وترتينا الفضائل ، وتسمو بها مكارم الأخلاق .

وكان المقصد الأول في القرآن لبلوغ هذه الأهداف هو تصحيح

(١) سورة الأنعام - الآية ٣٨ .

(٢) سورة النحل - الآية ٨٩ .

(٣) سورة الاسراء - الآية ١٢ .

عن إبطال مذهب من المذاهب لا يصدر فقط عن (وجوب) ذلك عليه .

وثانياً : وقف صاحب الرأي عند فكرة واحدة هي (خلق الإنسان من طين) . ولم يحل النظر في جميع الآيات التي تحدثت عن خلق الإنسان .

ثالثاً : إذا التزم الباحث بما يقتضيه الأسلوب العربى واستخرج من القرآن الكريم ما يمليه هذا الأسلوب فقد أدى حق القرآن عليه ، وقد قام بواجب يمليه عليه الفهم الصحيح الدقيق لأسلوب القرآن الكريم .

* * *

وقد قلت أن فى آية الروم دقيقة اهتدى إليها العلماء السابقون ، وأقول إنى اهتديت إلى دقيقة أخرى فى آيات أخرى ، وكلتاها واضحة الدلالة فى إبطال مذهب النشوء والارتقاء .

أما الدقيقة الأولى فيحدثنا الامام فخر الدين الرازى وهو يفسر هذه الآية الكريمة آية سورة الروم فيقول : (وفى الآية لطيفتان : إحداهما قوله : (إذا) وهى للمفاجأة ، يقال : خرجت فإذا أسد بالباب ، وهو إشارة إلى أن الله تعالى خلقه من تراب بكن فكان ، لا أنه صار معدناً ، ثم نباتاً ثم حيواناً ثم إنساناً ، وهذا إشارة إلى مسألة حكيمية وهى أن الله تعالى يخلق أولاً إنساناً فينبه أنه يحبى حيواناً أو نامياً وغير ذلك ، لا أنه خلق أولاً حيواناً ثم يجعله إنساناً) .

ولعل الرازى يرد بذلك على ما وصل إليه علمه من قول فلاسفة الإغريق من أن الخلية أو (الأميبا) هى أصل الحيوانات حتى الإنسان . وذلك أن الأميبا تطورت إلى الإسفنج ثم نشأت

تركيبه العجائب والغرائب ، ويدرسون الأحوال المعنوية للأنفس ، وكلما تعمقوا في الدرس ازدادوا بالله إيماناً .

كل هذا الذي أشرت إليه بينه القرآن وفصله ، وما ترك أمراً يحتاج إليه الإنسان في معاشه ومعاده إلا بينه بصريح اللفظ ، أو بالإشارة والإيماء ، أو باللزوم والاقتضاء .

ومن الواضح أن العقيدة وما يتعلق بها إنما تكون من الإنسان فالحديث عنها حديث عن أخص شئون هذا الكائن البشري ، ومن هنا يصح القول إن المقصود من كل ما في القرآن إنما هو الإنسان ، ولكني سأفصل بين ما في القرآن من إلهيات وغيبات ، وبين ما يتعلق بالإنسان وحياته ، وإذا أشرت إلى العقيدة فإنما أشير إليها لأبين مدى حاجة الإنسان إليها ، ولأكشف عن آثارها في حياة الفرد والجماعة . وهذا ما أردته من هذا البحث .

فإذا قيل إن جميع ما في القرآن هو لخير الإنسان سواء في ذلك عقائده وعباداته وتشريعاته فهذا صحيح ، ولكن عند تفصيل القول يمكن أن نتحدث عن الإلهيات وكل ما يتصل بها من أدلة وبر ، وعن السمعيات وكل ما يتصل بها أيضاً ، ثم عن الإنسان وما يتصل بخلقه وطبائعه وميوله ، وسلوكه وأخلاقه ، ونجد - حينئذ - فواصل مميزة لكل مقصد من هذه المقاصد القرآنية . ولا ننسى أن في القرآن جانباً يتصل (بالجن) ، وهذا الجانب - كما هو واضح غير الجانب الإنساني .

الجن خوطبوا في القرآن كما خوطب الإنسان ، والجن استمع منهم نفر إلى القرآن صرفهم الله تعالى إلى النبي ليستمعوا ، وفي القرآن سورة مستقلة عن الجن .

وفيه حديث عن (الملائكة) الذين لا يعصون الله ما أمرهم ،

والظلمات الثلاث هي : البطن والرحم والمشيمة (الكيس الذي يغلف به الجنين) . والقرار المكين هو الرحم ، وهو محصن تحصيئاً محكماً داخل الحوض الذي أعده الله تعالى لحفظه .

والقرار مصدر وصف به المكان وهو الرحم مبالغة ، كما وصف الرحم بالمكانة وهي صفة للنطفة على سبيل المبالغة أيضاً ، وأصل الكلام جعل نطفة في مستقر تمكنت فيه النطفة ، وجاء الكلام على هذا النظم مبالغة ، وهذا من أسرار الأسلوب القرآني البديع العجيب .

ويؤخذ من كلام الأطباء في وصف الرحم أن الله تعالى حاطه بكل أسباب الراحة ، وحصنه بأقوى وسائل الوقاية .

وتلك الحقائق العلمية التي تضمنتها هاتان الكلمتان : ﴿ظلمات ثلاث﴾ والكلمتان : ﴿قرار مكين﴾ لا يمكن أن يهتدى إليها - في عهد الرسالة المحمدية - بشر ، فهي تنفي أن يكون القرآن من صنع محمد - كما يقول بعض الجاهلين ، وكما يفترى بعض الحاقدين على الإسلام ورسوله ، وعلى المسلمين - .

وأما أطوار الإنسان في الحياة ، بعد الأمد الذي جدد له في بطن أمه فهي وإن كانت معلومة إلا أن القرآن يذكرنا لينبه الإنسان - تنبيهاً دائماً - إلى أنه لا يبقى على حال واحدة ، وأن له نهاية هي اليقين الذي يشبه الشك ، وليذكره أن البعث حق :

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تَرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّن عِلْقَةٍ ثُمَّ مِّن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّن يَتُوفَىٰ وَمِنْكُمْ مَّن يُرْدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعَمَرِ

ومن النفس ، ومن حياة المجتمعات .
وكتاب الكون - مع كثرة ما بحث الباحثون ، ودرس
الدارسون - لا يزال فيه الكثير الكثير مما لم يهتد العقل البشرى إليه ،
وكل يوم تطالعنا أبحاث العلماء بما لم يخطر لنا على بال ، بل ربما
يكاد يلحق بالخيال ، وهكذا كل صنع الله تعالى ، يدرك العلم منه
اليسير ، ويبقى الكثير تدركه الأجيال بعد الأجيال ، ويبقى أخيراً ما
يستأثر الله - سبحانه - بعلمه .

قال الجاحظ : (لأن الإنسان وإن أضيف إلى الكمال ، وعرف
بالبراعة ، وغمر العلماء ، فإنه لا يكمل أن يحيط علمه بكل ما في
جناح بعوضة أيام الدنيا ، ولو استمد بقوة كل نظار حكيم ،
واستعار حفظ كل بحاث واع ، وكل نقاب في البلاد ، ودراسة
للكتب^(١) .

(١) كتاب الحيوان ج ٥ ص ٢٠٠ ، وغمر العلماء أى فاقهم .

والظلمات الثلاث هي : البطن والرحم والمشيمة (الكيس الذي يغلف به الجنين) . والقرار المكين هو الرحم ، وهو محصن تحصيئاً محكماً داخل الحوض الذي أعده الله تعالى لحفظه .

والقرار مصدر وصف به المكان وهو الرحم مبالغة ، كما وصف الرحم بالمكانة وهي صفة للنطفة على سبيل المبالغة أيضاً ، وأصل الكلام جعل نطفة في مستقر تمكنت فيه النطفة ، وجاء الكلام على هذا النظم مبالغة ، وهذا من أسرار الأسلوب القرآني البديع العجيب .

ويؤخذ من كلام الأطباء في وصف الرحم أن الله تعالى حاطه بكل أسباب الراحة ، وحصنه بأقوى وسائل الوقاية .

وتلك الحقائق العلمية التي تضمنتها هاتان الكلمتان : ﴿ظلمات ثلاث﴾ والكلمتان : ﴿قرار مكين﴾ لا يمكن أن يهتدى إليها - في عهد الرسالة المحمدية - بشر ، فهي تنبئ أن يكون القرآن من صنع محمد - كما يقول بعض الجاهلين ، وكما يفترى بعض الحاقدين على الإسلام ورسوله ، وعلى المسلمين - .

وأما أطوار الإنسان في الحياة ، بعد الأمد الذي جدد له في بطن أمه فهي وإن كانت معلومة إلا أن القرآن يذكرنا لينبه الإنسان - تنبيهاً دائماً - إلى أنه لا يبقى على حال واحدة ، وأن له نهاية هي اليقين الذي يشبه الشك ، وليذكره أن البعث حق :

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تَرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّن عِلْقَةٍ ثُمَّ مِّن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ لَّئِبِين لَّكُمْ وَنُقَرِّفُ الْأَرْحَامَ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّن يَتُوفَى وَمِنْكُمْ مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعَمَرِ

حفظ ما تقوم به حياته ، وما يضمن للجنس البشرى النمو والبقاء . ولم يكف القرآن بالحدود الدنيا التي لا بد منها في حفظ حياة الإنسان ، ونموها وازدهارها ، بل أرشد إلى ما به كمالها ، وسنّ له من الأوامر والنواهي والآداب ما يجعل هذه الحياة سعيدة ، كاملة لو اتبع السنن اللا حجب ، وسار في الطريق المستقيم . ولكن كثيراً من بنى البشر أبوا إلا أن يخرجوا عن طاعة الله إلى طاعة الأهواء ، والتزوات والشهات ، فساءت - في كثير من العصور حياة الفرد ، وحياة الجماعات ، وكان الأمر كما قال تعالى : ﴿وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾^(١) .

١ - المحافظة على النفس :

حاط القرآن الكريم النفس البشرية بسياج منيع من التعاليم لو انتهجها الأفراد والجماعات لعاش كلٌّ في أمن وسلام . والأمن على النفس أحد ثلاثة أمور نبه الرسول الكريم إلى أنها تعدل الدنيا وما فيها ، وذلك حيث يقول - ﷺ - : (من أصبح منكم آمناً في سربه ، معافى في جسده ، عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها)^(٢) .

والمحافظة على النفس التي نتحدث عنها تتضمن الحديث عن هذه الأمور الثلاثة : الأمن من الغوائل التي تهدد الإنسان لترهق روحه ، والعافية التي ينشدها المرء لبدنه ، والقوت الذي يحفظ عليه حياته .

(١) سورة النحل - من الآية ١١٨ .

(٢) رواه الترمذى وابن ماجه ، كل منهما في باب الزهد .

حائضاً أو نفساء ، فيكفي أن يغسل المسلم أعضائه الظاهرة خمس مرات في اليوم لينقيها من الأتربة والجراثيم ، وأن يصب الماء على جسده فيعمه كله إذا كان عنده ما يوجب الغسل .

ولعل من أروع ما قرأت أخيراً بحثاً قام به أحد الدارسين عن فائدة الاستنشاق في الوضوء والغسل ، فقد أثبت أن استنشاق الماء ، ومس الأنف به يقتل تسعة أنواع من الجراثيم ، قال : وهذه الجراثيم تتجدد كل خمس ساعات .

وما زال العلم يكشف كل يوم عن جديد نجم بأن القرآن الكريم يؤيده ولا ننحرف فنقول إنه يؤيد القرآن كما يحلو لبعض الغافلين ، والمفتونين بالعلم .

ولا نطيل في شرح ما يعود على صحة الإنسان من النظافة ، فما أظن أحداً يجهل ذلك ، ولو كان يعيش في شعاف الجبال ، أو في متاهات الغابات .

وما أوجبه القرآن للحفاظ على صحة الإنسان الاعتدال في الطعام والشراب ، جاء ذلك في قوله تعالى : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ (١) .

فالإسراف في الطعام أحد المعاول التي تحطم جسم الإنسان ، وقد أثبت الطب الحديث العلاقة الوثيقة بين البدانة التي تنشأ - عادة - عن الإكثار من الطعام كمّاً ونوعاً ، وبين أمراض القلب والمعدة والكلى والكبد .

ومما قاله بعض الحكماء : إن الناس يحفرون قبورهم بأنسانهم .

(١) سورة الأعراف - الآية ٣١ .

فى القصاص حياة عظيمة : حياة لمن يُراد قتله ، ذلك أن صاحبه إذا علم أنه حين يقتل يقتص منه بالقتل يتخرج ويكف ، وحياة لمن يريد أن يقتل ، حياة له نفسه ، لأن كفه عن القتل ينجيه من القصاص ، وحياة لآخرين ، فكثيراً ما تهدأ نفوس أقرباء القتيل وعشيرته إذا اقتص من القاتل ، أما إذا اقتص من القاتل ، أما إذا أفلت من يد الحاكم ، أو كان هناك من القوانين ما يحميه من القتل فإن أولياء الدم - فى الكثير الغالب - يأخذون حقهم بأيديهم ، وبذلك يُفتح الباب واسعاً للثارات ، وتعم المجتمع ألوان من الفوضى والاضطراب ، قد تستمر عشرات السنين ، وكم يقتل فيها من الأبرياء ، ولا ذنب لهم إلا أن القاتل الأول أفلت من القصاص ، إن كان هذا ذنبهم ، وفى الحقيقة هو ذنب الحاكم أو ذنب المجتمع ، أو ذنب أولئك الذين يدافعون عن القاتل ، وهم على يقين أنه قاتل « يستعينون بذراية الألسنة ، وبما تحتمله بعض القوانين من تفسيرات ، وأولاً وأخيراً يستعينون بضمايرهم الخرية ، ونفوسهم المريضة ، وشهوتهم العارمة إلى المال .

ولا أدرى لماذا تنفر بعض النفوس من عقوبة الإعدام ؟ .
 ليس القاتل قد اعتدى على نفس حرم الله قتلها فأزهقها ؟ !
 ليس من أبسط أنواع العدالة أن يلقي القاتل نفس المصير الذى صار إليه إنسان لا ذنب له ؟

ألسنا نرى فى كثير من المجتمعات الآثار السيئة التى تنشأ عن تهاون القوانين أحياناً مع القتلة ؟

إن الله - سبحانه - قد كتب علينا القصاص فى القتلى ، ومع ذلك أباح لولى الدم أن يعفو ، وهذا منتهى السماحة من الإسلام .
 وقد نهى الله عز وجل فى آيات أخر عن القتل ، ومن ذلك قوله

والظلمات الثلاث هي : البطن والرحم والمشيمة (الكيس الذي يغلف به الجنين) . والقرار المكين هو الرحم ، وهو محصن تحصيئاً محكماً داخل الحوض الذي أعده الله تعالى لحفظه .

والقرار مصدر وصف به المكان وهو الرحم مبالغة ، كما وصف الرحم بالمكانة وهي صفة للنطفة على سبيل المبالغة أيضاً ، وأصل الكلام جعل نطفة في مستقر تمكنت فيه النطفة ، وجاء الكلام على هذا النظم مبالغة ، وهذا من أسرار الأسلوب القرآني البديع العجيب .

ويؤخذ من كلام الأطباء في وصف الرحم أن الله تعالى حاطه بكل أسباب الراحة ، وحصنه بأقوى وسائل الوقاية .

وتلك الحقائق العلمية التي تضمنتها هاتان الكلمتان : ﴿ظلمات ثلاث﴾ والكلمتان : ﴿قرار مكين﴾ لا يمكن أن يهتدى إليها - في عهد الرسالة المحمدية - بشر ، فهي تنفي أن يكون القرآن من صنع محمد - كما يقول بعض الجاهلين ، وكما يفترى بعض الحاقدين على الإسلام ورسوله ، وعلى المسلمين - .

وأما أطوار الإنسان في الحياة ، بعد الأمد الذي جدد له في بطن أمه فهي وإن كانت معلومة إلا أن القرآن يذكرنا لينبه الإنسان - تنبيهاً دائماً - إلى أنه لا يبقى على حال واحدة ، وأن له نهاية هي اليقين الذي يشبه الشك ، وليذكره أن البعث حق :

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تَرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقَرِّفَ الْأَرْحَامَ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّنْ يَتُوفَى وَمِنْكُمْ مَّنْ يُؤَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعَمَرِ

وجاء في القرآن نهى الإنسان أن يعرض نفسه لمواطن الهلكة ،
فعليه إذا ظن أن في مكان « أو في عمل ، ما يعرضه لهلاك
النفس ، عليه أن يتعد عنه : ﴿وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا
بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إن الله يحب المحسنين﴾^(١) .

فالإنفاق في سبيل الله - ومنه الجهاد - يقوى شوكة الأمة ،
ويخيف أعداءها ، وإمساك المال ، والضن به على ما يعود على
الأمة بالخير في السلم والحرب - يضعفها ، ويطمع فيها أعداءها
المتربصين بها ، ويعرضها للهلاك .

هذا سياق الآية ، ومع ذلك يحتمل هذا النهى : ﴿ولا تلقوا
بأيديكم إلى التهلكة﴾ تعرض النفس لخطر محقق دون أن يكون مع
الإنسان ما يدافع به عن نفسه .

وقد أثبت علماء الاجتماع ، وعلماء النفس أن كثيراً من أسباب
الانتحار في هذا العصر يرجع إلى الإدمان على المخدرات ، ومع أن
هذا العمل محرم شرعاً لأنه يؤثر على العقل ، ويقلل من نشاط الفرد
في العمل لخير نفسه ، ولخير أمته مع ذلك هو داخل تحت هذا
النهى : ﴿ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾ ، لأنه يكاد يكون من
الحقق أن نهاية مدمن هذه الآفات إما المرض المقعد ، وإما الجنون
وإما الانتحار ، وفي كل ذلك إلقاء للنفس في التهلكة .

وأما العافية فإن في تعاليم القرآن ما يحفظها وافية على من ينفذ
هذه التعاليم ، ولعل من أوضح ذلك تلك الطهارة التي أوجبها
الشرع الإسلامى للدخول في الصلاة ، ولقراءة القرآن ، ودخول
المسجد إذا كان عند المسلم ما يمنعه منها من جنابة ، أو كانت المرأة

(١) سورة البقرة - الآية ١٩٥ .

والظلمات الثلاث هي : البطن والرحم والمشيمة (الكيس الذي يغلف به الجنين) . والقرار المكين هو الرحم ، وهو محصن تحصيئاً محكماً داخل الحوض الذي أعده الله تعالى لحفظه .

والقرار مصدر وصف به المكان وهو الرحم مبالغة ، كما وصف الرحم بالمكانة وهي صفة للنطفة على سبيل المبالغة أيضاً ، وأصل الكلام جعل نطفة في مستقر تمكنت فيه النطفة ، وجاء الكلام على هذا النظم مبالغة ، وهذا من أسرار الأسلوب القرآني البديع العجيب .

ويؤخذ من كلام الأطباء في وصف الرحم أن الله تعالى حاطه بكل أسباب الراحة ، وحصنه بأقوى وسائل الوقاية .

وتلك الحقائق العلمية التي تضمنتها هاتان الكلمتان : ﴿ظلمات ثلاث﴾ والكلمتان : ﴿قرار مكين﴾ لا يمكن أن يهتدى إليها - في عهد الرسالة المحمدية - بشر ، فهي تنفي أن يكون القرآن من صنع محمد - كما يقول بعض الجاهلين ، وكما يفترى بعض الحاقدين على الإسلام ورسوله ، وعلى المسلمين - .

وأما أطوار الإنسان في الحياة ، بعد الأمد الذي جدد له في بطن أمه فهي وإن كانت معلومة إلا أن القرآن يذكرنا لينبه الإنسان - تنبيهاً دائماً - إلى أنه لا يبقى على حال واحدة ، وأن له نهاية هي اليقين الذي يشبه الشك ، وليذكره أن البعث حق :

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تَرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقَرِّفَ الْأَرْحَامَ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّنْ يَتُوفَى وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ

يريد أنهم يسرفون في الطعام فيصابون بشتى الأمراض التي تسلمهم - غير مطمئنين - إلى قبورهم .

وقد جاء في القرآن الكريم - حفاظاً على صحة الإنسان - تحريم الخبائث ، ومنها الخمر التي تسمى أم الخبائث ، والقرآن يسميها رجساً : ﴿بأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون﴾^(١) . وكلمة (الرجس) تدل على منتهى القبح والخبث « والضرر والشر » .

وقد أكثر الأطباء القول في بيان الأضرار التي تنشأ من تناول الخمر ، وآخر بحث قرأته في ذلك ما نشره بعض الأطباء في إحدى الصحف المصرية ، وقد جاء فيه : (اتضح للأطباء أن للخمر أخطاراً كثيرة على القلب ، فهي تخفض كفاءة القلب بتأثيرها المباشر على عضلة القلب ، كما أنها - يعني الخمر - تسبب اختلافاً في ضربات القلب عند بعض الناس ... ومن المعروف أن اختلاف ضربات القلب يؤدي بدوره إلى تقليل كفاءة عمل القلب .. هي - أيضاً - ترفع نسبة الدهون في الجسم ... ومن المعروف طيباً أن ارتفاع نسبة الدهون في الجسم يؤدي إلى ترسيب (الكوليسترول) في الشرايين ، وهو يؤدي بدوره إلى تصلب الشرايين الذي ينشأ عنه بالتالي أمراض القلب ، مثل الذبحة الصدرية والجلطة ، ولقد ثبت هذا علمياً بعد تجارب على الحيوانات والإنسان .

كما أن الخمر تحدث هبوطاً في ضغط الدم لالتهاب الأعصاب الذي عادة ما يحدث بين مدمني الخمر ... وهذا قد يؤدي بدوره إلى

(١) سورة المائدة - الآية ٩٠ .

حائضاً أو نفساء ، فيكفي أن يغسل المسلم أعضائه الظاهرة خمس مرات في اليوم لينقيها من الأتربة والجراثيم ، وأن يصب الماء على جسده فيعمه كله إذا كان عنده ما يوجب الغسل .

ولعل من أروع ما قرأت أخيراً بحثاً قام به أحد الدارسين عن فائدة الاستنشاق في الوضوء والغسل ، فقد أثبت أن استنشاق الماء ، ومس الأنف به يقتل تسعة أنواع من الجراثيم ، قال : وهذه الجراثيم تتجدد كل خمس ساعات .

وما زال العلم يكشف كل يوم عن جديد نجم بأن القرآن الكريم يؤيده ولا ننحرف فنقول إنه يؤيد القرآن كما يحلو لبعض الغافلين ، والمفتونين بالعلم .

ولا نطيل في شرح ما يعود على صحة الإنسان من النظافة ، فما أظن أحداً يجهل ذلك ، ولو كان يعيش في شعاف الجبال ، أو في متاهات الغابات .

وما أوجبه القرآن للحفاظ على صحة الإنسان الاعتدال في الطعام والشراب ، جاء ذلك في قوله تعالى : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ (١) .

فالإسراف في الطعام أحد المعاول التي تحطم جسم الإنسان ، وقد أثبت الطب الحديث العلاقة الوثيقة بين البدانة التي تنشأ - عادة - عن الإكثار من الطعام كمّاً ونوعاً ، وبين أمراض القلب والمعدة والكلى والكبد .

ومما قاله بعض الحكماء : إن الناس يحفرون قبورهم بأنسانهم .

(١) سورة الأعراف - الآية ٣١ .

وأوجب الإسلام عقوبة على الزانى تصل إلى حد الرجم بالحجارة حتى الموت ، للزانى المحصن (المتزوج) إذا ثبتت جريمته ثبوتاً مؤكداً بالإقرار ، أو بشهادة أربعة رجال عدول ، مع ثباتهم على الشهادة .

يقول الله تعالى : ﴿ولا تقرّبوا الزّنا إنه كان فاحشة وساء سبيلاً﴾^(١) ، وفى آية أخرى : ﴿الزّانى لا ينكح إلّا زانية أو مشركة والزّانية لا ينكحها إلّا زانٍ أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين﴾^(٢) . ووصف الله سبحانه وتعالى (عباد الرحمن) بأسمى الأوصاف وأنبأها وأروعها وكان منها أنهم لا يزنون ، ثم عقب سبحانه هذا الوصف بالعقاب الشديد الذى أعده لمن يرتكبون هذه الفاحشة ، فقال : ﴿ومن يفعل ذلك يلق أثاماً . يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً﴾^(٣) ثم استثنى من هذا العذاب من تاب وآمن وعمل صالحاً .

ولتحريم الزنا حكمٌ كثيرةٌ منها المحافظة على صحة الإنسان ، وغير خاف على أحد ما قد ينشأ عن هذا ، الذى سباه القرآن (فاحشة) ووصفه بأنه (سواء سبيلاً) من أمراض ، بعضها يفتك بالحياة ، وبعضها يترك صاحبه يتقلب على أشواك الألم ، وبعضها يؤثر على صحة الجنين فيخرج مشوهاً ويعيش حياة - إن قدرت له الحياة - بائسة كئيبة .

والقلق واليأس والإفراط فى الحزن التى قد تسبب أمراضاً

(١) سورة الاسراء - الآية ٣٢ .

(٢) سورة النور - الآية ٣ .

(٣) سورة الفرقان - من الآية ٦٨ ، والآية ٦٩ .

حائضاً أو نفساء ، فيكفي أن يغسل المسلم أعضائه الظاهرة خمس مرات في اليوم لينقيها من الأتربة والجراثيم ، وأن يصب الماء على جسده فيعمه كله إذا كان عنده ما يوجب الغسل .

ولعل من أروع ما قرأت أخيراً بحثاً قام به أحد الدارسين عن فائدة الاستنشاق في الوضوء والغسل ، فقد أثبت أن استنشاق الماء ، ومس الأنف به يقتل تسعة أنواع من الجراثيم ، قال : وهذه الجراثيم تتجدد كل خمس ساعات .

وما زال العلم يكشف كل يوم عن جديد نجم بأن القرآن الكريم يؤيده ولا ننحرف فنقول إنه يؤيد القرآن كما يحلو لبعض الغافلين ، والمفتونين بالعلم .

ولا نطيل في شرح ما يعود على صحة الإنسان من النظافة ، فما أظن أحداً يجهل ذلك ، ولو كان يعيش في شعاف الجبال ، أو في متاهات الغابات .

وما أوجبه القرآن للحفاظ على صحة الإنسان الاعتدال في الطعام والشراب ، جاء ذلك في قوله تعالى : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ (١) .

فالإسراف في الطعام أحد المعاول التي تحطم جسم الإنسان ، وقد أثبت الطب الحديث العلاقة الوثيقة بين البدانة التي تنشأ - عادة - عن الإكثار من الطعام كمّاً ونوعاً ، وبين أمراض القلب والمعدة والكلى والكبد .

ومما قاله بعض الحكماء : إن الناس يحفرون قبورهم بأنسانهم .

(١) سورة الأعراف - الآية ٣١ .

بغفران الذنوب جميعاً لمن يشاء الغفران له - ما عدا الشرك فإنه لا يغفره - : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ .

ومما يبعد عن الإنسان الحزن القاتل أن يكون المؤمن على يقين من أن كل ما يصيبه بقضاء الله وقدره ، وأن ذلك في كتاب الله منذ الأزل : ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا أَنْ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ . لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ . وفي فطرة الإنسان أن يفرح للخير يناله ، ويحزن من الشر يصيبه ، فليس المراد بالأسى والفرح هنا هذين الشعورين مطلقاً ، بل المراد الحزن الشديد الذى يخرج الإنسان عن طبيعته ، والفرح المفرط الذى يؤدى إلى البطر .

ومازال الباحثون من شرقيين وغربيين يؤلفون الكتب ، وينشرون الأبحاث يثبتون فيها أن السعادة الحقيقية في سكينة النفس وهدوئها ، وميلها إلى التفاؤل ، وبعدها عن التشاؤم ، ويؤكدون أن القلق من أعدى أعداء الحياة .

وهذا ما أكدته القرأتين الكريم منذ أربعة عشر قرناً ، لا بأس ولا قنوط ، ولا أسى على ما فات ، ولا مبالغة في الفرح بما يناله الإنسان من خير . بل اعتدال وهدوء وصبر ورضا ، وأمل في رحمة الله ، تكشف الضر في الدنيا ، وتغفر الذنوب في الآخرة ، ومادامت النفس راضية ، والأمل مشرقاً رحيباً ، فالحياة جميلة ، والعيش سائع هنيء والعافية موفورة ، وفي ذلك كل السعادة التي حار

(١) سورة النساء - الآية ٤٨ ، والآية ١١٦ .

(٢) سورة الحديد - الآيتان ٢٢ ، ٢٣ .

حائضاً أو نفساء ، فيكفي أن يغسل المسلم أعضائه الظاهرة خمس مرات في اليوم لينقيها من الأتربة والجراثيم ، وأن يصب الماء على جسده فيعمه كله إذا كان عنده ما يوجب الغسل .

ولعل من أروع ما قرأت أخيراً بحثاً قام به أحد الدارسين عن فائدة الاستنشاق في الوضوء والغسل ، فقد أثبت أن استنشاق الماء ، ومس الأنف به يقتل تسعة أنواع من الجراثيم ، قال : وهذه الجراثيم تتجدد كل خمس ساعات .

وما زال العلم يكشف كل يوم عن جديد نجم بأن القرآن الكريم يؤيده ولا ننحرف فنقول إنه يؤيد القرآن كما يحلو لبعض الغافلين ، والمفتونين بالعلم .

ولا نطيل في شرح ما يعود على صحة الإنسان من النظافة ، فما أظن أحداً يجهل ذلك ، ولو كان يعيش في شعاف الجبال ، أو في متاهات الغابات .

وما أوجبه القرآن للحفاظ على صحة الإنسان الاعتدال في الطعام والشراب ، جاء ذلك في قوله تعالى : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ (١) .

فالإسراف في الطعام أحد المعاول التي تحطم جسم الإنسان ، وقد أثبت الطب الحديث العلاقة الوثيقة بين البدانة التي تنشأ - عادة - عن الإكثار من الطعام كمّاً ونوعاً ، وبين أمراض القلب والمعدة والكلى والكبد .

ومما قاله بعض الحكماء : إن الناس يحفرون قبورهم بأنسانهم .

(١) سورة الأعراف - الآية ٣١ .

ويرى الشعرائى ، وكلمته حق ، يرى أن الصانع أفضل من العابد « وهو يريد العابد الذى ينقطع للعبادة ، ويكثر من النوافل بعد أداء الفرائض ، ويشغل بالأوراد والأذكار .

ومن أقواله : ما أجمل أن يجعل الخياط إبرته مسبحة « وأن يجعل النجار منشاره مسبحة .

ويؤيد ذلك ، ويؤكده قول عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - : إني أرى الرجل فيعجبني ، فإذا قيل لا حرقه له سقط من عيني .

فإذا سعى الإنسان فى الأرض ، وحصل على القوت فعليه أن • يطعم منه ، وأن يتناول ما يحفظ به بنيان جسمه ، أما حرمان النفس ، والإعراض عن الطيبات ، والالتذاذ بألم الجوع - والقوت ممكن - فليس ذلك من سنن الإسلام ، ولا من تعاليم القرآن . قاله تعالى يقول : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ ^(١) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرُمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ . وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴾ ^(٢)

وقد عاب بعض العلماء المحققين على بعض المتصوفة الذين يحرمون أنفسهم الطيبات ، يرون أن فى هذا الحرمان تهدياً للنفس ، ورياضة على الطاعة ، ورضا لله .

وقد روى عن النبي - ﷺ - فى هذا الشأن أحاديث ، منها أن ناساً من الصحابة أرادوا المبالغة فى العبادة : (فقال بعضهم : لا

(١) سورة البقرة - الآية ١٧٢ .

(٢) سورة المائدة - الآيات ٨٧ ، ٨٨ .

حائضاً أو نفساء ، فيكفي أن يغسل المسلم أعضائه الظاهرة خمس مرات في اليوم لينقيها من الأتربة والجراثيم ، وأن يصب الماء على جسده فيعمه كله إذا كان عنده ما يوجب الغسل .

ولعل من أروع ما قرأت أخيراً بحثاً قام به أحد الدارسين عن فائدة الاستنشاق في الوضوء والغسل ، فقد أثبت أن استنشاق الماء ، ومس الأنف به يقتل تسعة أنواع من الجراثيم ، قال : وهذه الجراثيم تتجدد كل خمس ساعات .

وما زال العلم يكشف كل يوم عن جديد نجم بأن القرآن الكريم يؤيده ولا ننحرف فنقول إنه يؤيد القرآن كما يحلو لبعض الغافلين ، والمفتونين بالعلم .

ولا نطيل في شرح ما يعود على صحة الإنسان من النظافة ، فما أظن أحداً يجهل ذلك ، ولو كان يعيش في شعاف الجبال ، أو في متاهات الغابات .

وما أوجبه القرآن للحفاظ على صحة الإنسان الاعتدال في الطعام والشراب ، جاء ذلك في قوله تعالى : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ (١) .

فالإسراف في الطعام أحد المعاول التي تحطم جسم الإنسان ، وقد أثبت الطب الحديث العلاقة الوثيقة بين البدانة التي تنشأ - عادة - عن الإكثار من الطعام كمّاً ونوعاً ، وبين أمراض القلب والمعدة والكلى والكبد .

ومما قاله بعض الحكماء : إن الناس يحفرون قبورهم بأنسانهم .

(١) سورة الأعراف - الآية ٣١ .

٢ - المحافظة على الدين :

هدى الله الإنسان بالعقل الذى وهبه له ، وبالفطرة التى أودعها فيه إلى أن له خالقاً قادراً عليمًا ، ثم أرسل له الرسل تؤكد له ما اعتقده فى الله ، وتبين له شرائعه ، ودعاه إلى التفكير فى ملكوت السموات والأرض ليزداد يقيناً بوحداية الله وقدرته ، وحذره من الإشرak بالله ، وضرب الأمثال بالأمم التى كفرت بما جاء به الرسل وتنكرت لما يهدى إليه العقل والتدبر ، وبين كيف كانت عواقب أمورها .

ودعاه بالترغيب والترهيب إلى أن يسلك الطريق المستقيم ، وذلك أن النفس البشرية جلبت على الخوف والرجاء « فهى تحشى مصائب الدنيا ، وتحاف عذاب الآخرة ، وهى ترجو أن تعيش - دائماً - فى رغد من العيش ، وأن تلقى يوم القيامة من رضوان الله ما تنعم به .

وآيات الترغيب والترهيب فى القرآن الكريم كثيرة « وكثيراً ما يقترنان فى سياق واحد : ﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴾ ^(١) . ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّذِي هِيَ أَقْرَبُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا . وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ ^(٢) .

بل يجيء الترغيب والترهيب فى آية واحدة : ﴿ غَافِرُ الذَّنْبِ وَقَابِلُ التَّوْبِ شَدِيدُ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْمَصِيرِ ﴾ ^(٣) .

(١) سورة الحجر - الآيتان ٤٩ ، ٥٠ .

(٢) سورة الاسراء - الآيتان ٩ ، ١٠ .

(٣) سورة غافر - الآية ٣ .

يقول الله تعالى مخاطباً داود عليه السلام : ﴿يَا دَاوُدَ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾^(١) .

فاتبع الهوى مرة يغرى باتباعه مرات ، وحينئذ يغفل الإنسان عقله ، ويسير تبعاً لما يميل عليه هواه فيضل عن الحق ، ويتنكب الطريق القويم ، وينسى يوم الحساب ، وبهذا يستحق العذاب الشديد .

أما حين يتأبى الإنسان على هواه ، ويقاوم رغباته غير المشروعة ، ويرفض الانسياق وراء الشهوات فإن جانب التعقل فيه يقوى ، فيبصر طريقه ، ويسير على هدى ، وينجو من عثرات الغفلات .

٤ — المحافظة على المال :

أودع الله في نفس الإنسان غريزة التملك والاقتناء ، وكانت هذه ضرورة لبقاء نوعه ، فإن حياته مرهونة بما يملك من طعام وشراب ، وحياة النوع مرهونة بكل ما هو ضرورى لبقاء حياة الجماعة من حيوان ونبات وتجارة وصناعة .

وقد أشار القرآن إلى ذلك فى قوله تعالى : ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِدِ الْمَقْنُطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنُ الْمَآبِ﴾^(٢) .

(١) سورة (ص) - الآية ٢٦ .

(٢) سورة آل عمران - الآية ١٤ .

آخر أو يضره ، وقد أمر الرسول أن يبلغ الناس أنه لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ، وأنه لا يعلم الغيب ، ﴿قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون﴾ (١) .

فليت شعري ماذا يقول في هذه الآية أولئك الذين - ومنهم من ينتسب إلى أهل العلم - ينسبون إلى شيوخهم علم الغيب ، وكم كان عجبى وألمى بالغين حين قرأت لشيخ شهر بأنه بحر في العلم ، قرأت له حديثاً عن شيخه يقول فيه : لقد سألته مرة وقتاً طويلاً فما خطر ببالي خاطر طوال ممسانا إلا أخبرني به . فأى خطر على العامة ، وعلى أشباه العامة من مثل هذا الذى ما أعرف أنه روى عن نبي مرسل . أن يخبر جلسيه أو رفيقه في الطريق بكل ما يحدث به نفسه .

ونعود إلى إخلاص الدين فإنه لب الإسلام ، وبه تكون حقيقة المسلم .

فمن أدق ما فسر به «القلب السليم في قوله تعالى ﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون . إلا من أتى الله بقلب سليم﴾» (٢) إنه القلب الذى لم يكن فيه غير الله .

وقد روى أن بعض الصالحين سئل حين حضرته الوفاة : ما كان خير عملك ؟ فقال : وقفت على باب قلبي أربعين سنة فكلمنا حاول غير الله الدخول فيه منعتة .

ومما قيل : اليقين لا يساكن قلباً فيه سكون لغير الله . وقيل : من أعلام اليقين النظر إلى الله في كل شيء ، والرجوع إليه في كل أمر ، والاستعانة به في كل حين .

(١) الأعراف ١٨٨ . (٢) سورة الشعراء - الآيتان ٨٨ ، ٨٩ .

الحاجة حين يقترض من القادرين ، فكم خربت بيوت ، وأفلست متاجر بسبب الربا ، وكذلك حرّم الله القمار .

وحرّم القرآن الغش فى التجارة ، أو فى المكايل والموازين محافظة على أموال من يشتري ، فقد وردت آيات كثيرة فى وجوب إيفاء الكيل والميزان ، والتحذير من نخسها ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿والسمااء رفعها ووضع الميزان . ألا تطغوا فى الميزان . وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان﴾^(١) .

قال بعض المفسرين : ذكر الميزان فى هذه الآية ثلاث مرات بمعانٍ مختلفة فالأول هو الآلة : «ووضع الميزان» ، والثانى بمعنى المصدر : «ألا تطغوا فى الميزان» أى فى الوزن ، والثالث بمعنى المفعول : «ولا تخسروا الميزان» أى الموزون .

وتوعّد الله - سبحانه وتعالى - بأشد العقوبة أولئك الذين يأخذون أكثر من حقوقهم إذا اشتروا ، ويبخسون الناس حقوقهم إذا باعوا ، فقال : ﴿وإنّ للمطغفين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون . وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون﴾^(٢) .

قيل : كان أهل المدينة (مدينة الرسول) يطففون فنزلت هذه الآيات ، فخرج رسول الله - ﷺ - فقرأها ، خمس بخمس . قيل : يا رسول الله . وما خمس بخمس ؟ قال : (ما نقض قوم العهد إلا سلط الله عليهم عدوهم ، وما حكموا بغير ما أنزل الله إلا فشا فيهم الفقر ، وما ظهرت فيهم الفاحشة إلا فشا فيهم الموت ، ولا طففوا الكيل إلا مُنعوا النبات ، وأخذوا بالسنين (الجدب) ،

(١) سورة الرحمن - الآيات ٧ ، ٨ ، ٩ .

(٢) المطففون - الآيات ١ ، ٣٢ .

وبذلك يظل عقله يقظاً ، ويزداد قوة وحصافة .
وقد حذر القرآن من كل ما يؤثر على العقل أثراً سيئاً ، فحرم
الخمر ، ففوق ما فى الخمر من أضرار بدنية ونفسية فيها إذهاب
للعقل ، أو على الأقل فيها وقف لحركته أزمدة قد تقتصر وقد تطول ،
وفى النهاية سيكون لها التأثير الخطير على العقل .
كذلك حذر القرآن من أن تغلب إحدى قوى الإنسان الداخلية
على العقل فتطغى عليه ، وتفقدته - فى النهاية - السيطرة على
تصرفاته .

ومعروف عند القدماء من علمائنا أن قوى النفسية الداخلية
ثلاث : القوة الناطقة أو الملكية ، وهى القوة التى يكون بها الفكر
والتمييز والنظر فى حقائق الأمور ، والقوة الشهوية ، وتسمى
بالبيمية ، وهى التى تكون بها الشهوة ، وطلب الغذاء ، والشوق
إلى الملاذ ، والقوة الغضبية ، وتسمى السبعية ، وهى التى يكون بها
الغضب والنجدة ، والإقدام على الأهوال ، والشوق إلى التسلط
والكبرياء (١) .

والقرآن الكريم يطلق على القوة الأولى العقل واللب والقلب ،
وعلى القوتين الثانية والثالثة - إذا انحرفتا - الهوى ، وإنما تنحرفان
إذا لم تخضعا للعقل ، فإذا خضعنا له اعتدلت قوى الإنسان ،
واستقام سلوكه ، وسارت حياته فى طريق سَوَى ، وسعد فى دنياه
وآخرته .

لذلك يحذر القرآن الإنسان فى كثير من الآيات من اتباع
هواه ، أو أهواء الآخرين ، ويبين له ما يجر إليه الهوى من ضلال
وفساد .

(١) تهذيب الأخلاق لابن مسكويه .

الحاجة حين يقترض من القادرين ، فكم خربت بيوت ، وأفلست متاجر بسبب الربا ، وكذلك حرّم الله القمار .

وحرّم القرآن الغش فى التجارة ، أو فى المكايل والموازين محافظة على أموال من يشتري ، فقد وردت آيات كثيرة فى وجوب إيفاء الكيل والميزان ، والتحذير من نخسها ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿والسمااء رفعها ووضع الميزان . ألا تطغوا فى الميزان . وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان﴾^(١) .

قال بعض المفسرين : ذكر الميزان فى هذه الآية ثلاث مرات بمعانٍ مختلفة فالأول هو الآلة : «ووضع الميزان» ، والثانى بمعنى المصدر : «ألا تطغوا فى الميزان» أى فى الوزن ، والثالث بمعنى المفعول : «ولا تخسروا الميزان» أى الموزون .

وتوعّد الله - سبحانه وتعالى - بأشد العقوبة أولئك الذين يأخذون أكثر من حقوقهم إذا اشتروا ، ويبخسون الناس حقوقهم إذا باعوا ، فقال : ﴿وئيل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون . وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون﴾^(٢) .

قيل : كان أهل المدينة (مدينة الرسول) يطففون فنزلت هذه الآيات ، فخرج رسول الله - ﷺ - فقرأها ، خمس بخمس . قيل : يا رسول الله . وما خمس بخمس ؟ قال : (ما نقض قوم العهد إلا سلط الله عليهم عدوهم ، وما حكموا بغير ما أنزل الله إلا فشا فيهم الفقر ، وما ظهرت فيهم الفاحشة إلا فشا فيهم الموت ، ولا طففوا الكيل إلا مُنعوا النبات ، وأخذوا بالسنين (الجدب) ،

(١) سورة الرحمن - الآيات ٧ ، ٨ ، ٩ .

(٢) المطففون - الآيات ١ ، ٣٢ .

وقد يلفت النظر في هذه الآية أنها عدّدت أصناف ما يملك ، وكان يمكن أن تذكر كلمة واحدة جامعة كما ذكرت كلمة واحدة فيما سبق الأموال : «النساء» . و «البنين» ، والغريزة الجنسية وإن كانت ضرورية لبقاء النوع ، وكذلك غريزة الأبوة ، إلّا أنا لو أمعنا النظر لوجدنا أن هناك فرقاً بين هذه الغرائز الثلاث ، ذلك بالنظر إلى آحاد الناس ، فإن الإنسان قد يعيش بلا زوجة ، وقد يعيش بلا ولد ، ولكنه لا يستطيع أن يعيش بغير شيء يملكه ، وقد يقتصر في حياته على امرأة واحدة يتزوجها ، وعلى ابن واحد ، أو بنت واحدة ، ولكنه قلما يستطيع أن يعيش على نوع واحد من أنواع هذه الأموال . بل إن بعضها يتخذ وسيلة لغيره ، فالذهب والفضة مع ما جبلت عليه النفس من حبها وسيلتان إلى غيرها من المطعم والمشرب والملبس والسكن .

حقيقة أن الآية تقدم فيها ذكر النساء لأن الغريزة الجنسية أقوى الغرائز ، ولكن تعدد فيها ذكر أنواع المال . وقد جاء في القرآن الكريم اقتران المال بالنفس كثيراً عند البذل ، ولذلك قيل : المال عدل النفس . لما كانت هذه منزلة المال من النفس البشرية ، ومن الحياة الفردية والجماعية عرض لها القرآن الكريم من نواح كثيرة . فقد حث على تحصيله من طرق طيبة ، وحث على المحافظة عليه ، وعلى التمتع به ، وعلى إنفاقه في سبل الخير ، ونهى عن التبذير .

كما شرع القرآن شرائع الهدف منها حفظ مال الإنسان . فقد نهى أن يأكل الناس بعضهم أموال بعض بالباطل ، وأحل البيع ، وحرّم الربا لما في الربا من أضرار بالغة تلحق بصاحب

يقول الله تعالى مخاطباً داود عليه السلام : ﴿يَا دَاوُدَ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ (١).

فاتبع الهوى مرة يغرى باتباعه مرات ، وحينئذ يغفل الإنسان عقله ، ويسير تبعاً لما يميل عليه هواه فيضل عن الحق ، ويتنكب الطريق القويم ، وينسى يوم الحساب ، وبهذا يستحق العذاب الشديد .

أما حين يتأبى الإنسان على هواه ، ويقاوم رغباته غير المشروعة ، ويرفض الانسياق وراء الشهوات فإن جانب التعقل فيه يقوى ، فيبصر طريقه ، ويسير على هدى ، وينجو من عثرات الغفلات .

٤ — المحافظة على المال :

أودع الله في نفس الإنسان غريزة التملك والاقتناء ، وكانت هذه ضرورة لبقاء نوعه ، فإن حياته مرهونة بما يملك من طعام وشراب ، وحياة النوع مرهونة بكل ما هو ضرورى لبقاء حياة الجماعة من حيوان ونبات وتجارة وصناعة .

وقد أشار القرآن إلى ذلك فى قوله تعالى : ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِدِ الْمَقْنُطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنُ الْمَآبِ﴾ (٢).

(١) سورة (ص) - الآية ٢٦ .

(٢) سورة آل عمران - الآية ١٤ .

ولا منعوا الزكاة إلا حُبس عنهم المطر. ^(١)
وقد حَرَّمَ القرآن السرقة ، وأوجب فيها قطع يد السارق ۖ قال تعالى : ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنْ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ^(٢).

وهذه عقوبة مناسبة كل المناسبة لهذه الجريمة النكراء التي تهدد الناس في أموالهم ، وتحرمهم ثمرات أعمالهم ، وتشيع القلق والخوف بينهم ، وقد سماها الله - سبحانه فساداً في الأرض ، في قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا جِزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ^(٣).

ولما أُلِّهِم - إخوة يوسف - عليه السلام - بالسرقة ، وهم على أهبة العودة إلى بلادهم بعد أن أخذوا حاجتهم من الطعام من مصر ، قالوا - كما حكى عنهم القرآن في الرد على هذه التهمة : ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾ ^(٤).

قال بعض المفسرين : إن المراد بالإنفساد في الأرض ما يكون بالسرقة .

(١) الحاكم من رواية عبد الله بن بريدة عن أبيه رفعه : ما نقض قوم العهد - الحديث - وفيه بشرين المهاجر وفيه مقال ، ومن طريق عطاء بن أبي رباح عن عبد الله بن عمر مرفوعاً نحوه .

نقلًا عن كتاب تخريج أحاديث الكشاف للحافظ بن حجر

(٢) سورة المائدة - الآية ٣٨ .

(٣) سورة المائدة - الآية ٣٣ .

(٤) سورة يوسف - الآية ٧٣ .

الحاجة حين يقترض من القادرين ، فكم خربت بيوت ، وأفلست متاجر بسبب الربا ، وكذلك حرّم الله القمار .

وحرّم القرآن الغش فى التجارة ، أو فى المكايل والموازين محافظة على أموال من يشتري ، فقد وردت آيات كثيرة فى وجوب إيفاء الكيل والميزان ، والتحذير من نخسها ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿والسمااء رفعها ووضع الميزان . ألا تطغوا فى الميزان . وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان﴾^(١) .

قال بعض المفسرين : ذكر الميزان فى هذه الآية ثلاث مرات بمعانٍ مختلفة فالأول هو الآلة : «وضع الميزان» ، والثانى بمعنى المصدر : «ألا تطغوا فى الميزان» أى فى الوزن ، والثالث بمعنى المفعول : «ولا تخسروا الميزان» أى الموزون .

وتوعّد الله - سبحانه وتعالى - بأشد العقوبة أولئك الذين يأخذون أكثر من حقوقهم إذا اشتروا ، ويبخسون الناس حقوقهم إذا باعوا ، فقال : ﴿ويلٌ للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون . وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون﴾^(٢) .

قيل : كان أهل المدينة (مدينة الرسول) يطففون فنزلت هذه الآيات ، فخرج رسول الله - ﷺ - فقرأها ، خمس بخمس . قيل : يا رسول الله . وما خمس بخمس ؟ قال : (ما نقض قوم العهد إلا سلط الله عليهم عدوهم ، وما حكموا بغير ما أنزل الله إلا فشا فيهم الفقر ، وما ظهرت فيهم الفاحشة إلا فشا فيهم الموت ، ولا طففوا الكيل إلا مُنعوا النبات ، وأخذوا بالسنين (الجدب) ،

(١) سورة الرحمن - الآيات ٧ ، ٨ ، ٩ .

(٢) المطففون - الآيات ١ ، ٣٢ .

العمل المثمر المفيد .

ومن أعجب أن يدعى بعض أعداء الشريعة . ومنهم - مع الأسف - من ينسب إلى رجال الدين . أن يدعوا أن الشرق كله في مجاعة ، وأن الواجب أولاً أن نهىء للشعوب حياة الكفاية ثم نطالب بعد ذلك بقطع يد السارق . وفي تمويههم هذا مغالطتان واضحتان .

فأولاً : إذا نظرنا نظرة استقصاء وتتبع لوجدنا أكثر الذين يسرقون أو يرتشون أو يختلسون ليسوا فقراء ، ولا في مجاعة ، بل هم في سعة من العيش ، أو على الأقل في كفاية منه .
وثانياً : في أى عصر من العصور ، وفي أى قطر من الأقطار خلا المجتمع من فقراء ومحتاجين ومع ذلك لم يقل احد إن هذا الحد من حدود الله يعطل .

نعم إذا عمت المجاعة ، واشتدت الحاجة .. كما حدث في عام الرمادة في عهد سيدنا عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - أوقفت إقامة الحد ، وكان لمن يمد يده إلى مال غيره بعض العذر ، على أن المسلم الحق لا يشين يده بهذه الجريمة النكراء إلا إذا أشرف على الهلاك ، بل ربما فضل الموت على أن يسرق أو يختلس .

هـ - المحافظة على العرض :

أودع الله - سبحانه - في الإنسان الغريزة الجنسية ، وهى - وإن كانت ذات أهمية بالغة في حياة البشر ، وفي بقاء النوع الإنسانى - ليست كل شىء في توجيه سلوك الإنسان كما يرى بعض الباحثين الذين يرجعون إليها كل تصرفات الإنسان منذ سنواته الأولى ؛ ذلك أن الإنسان يصدر في تصرفاته عن مجموعة من القرائن

الحاجة حين يقترض من القادرين ، فكم خربت بيوت ، وأفلست متاجر بسبب الربا ، وكذلك حرّم الله القمار .

وحرّم القرآن الغش فى التجارة ، أو فى المكايل والموازين محافظة على أموال من يشتري ، فقد وردت آيات كثيرة فى وجوب إيفاء الكيل والميزان ، والتحذير من نخسها ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿والسمااء رفعها ووضع الميزان . ألا تطغوا فى الميزان . وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان﴾^(١) .

قال بعض المفسرين : ذكر الميزان فى هذه الآية ثلاث مرات بمعانٍ مختلفة فالأول هو الآلة : «ووضع الميزان» ، والثانى بمعنى المصدر : «ألا تطغوا فى الميزان» أى فى الوزن ، والثالث بمعنى المفعول : «ولا تخسروا الميزان» أى الموزون .

وتوعّد الله - سبحانه وتعالى - بأشد العقوبة أولئك الذين يأخذون أكثر من حقوقهم إذا اشتروا ، ويبخسون الناس حقوقهم إذا باعوا ، فقال : ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ . وَإِذَا كَالَهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يَخْسَرُونَ﴾^(٢) .

قيل : كان أهل المدينة (مدينة الرسول) يطففون فنزلت هذه الآيات ، فخرج رسول الله - ﷺ - فقرأها ، خمس بخمس . قيل : يا رسول الله . وما خمس بخمس ؟ قال : (ما نقض قوم العهد إلا سلط الله عليهم عدوهم ، وما حكموا بغير ما أنزل الله إلا فشا فيهم الفقر ، وما ظهرت فيهم الفاحشة إلا فشا فيهم الموت ، ولا طففوا الكيل إلا مُنعوا النبات ، وأخذوا بالسنين (الجدب) ،

(١) سورة الرحمن - الآيات ٧ ، ٨ ، ٩ .

(٢) المطففون - الآيات ١ ، ٣٢ .

لقوم يتفكرون»

فعلى من يستطيع الزواج أن يبادر إليه ، ليعف نفسه ، ويقضى حق غريزته ، ويسعد بالذرية التى جعل الله حبها طبيعة من طبائعه . فإذا لم يستطع الرجل الزواج لقلة ذات يده ، أو لعزوف نفسه عنه فعليه أن يستعف ، وليحذر أن يرتكس فى فاحشة الزنا ، قال تعالى : ﴿وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً حتى يغنيهم الله من فضله﴾ (٢) .

يستطيع أن يشغل نفسه بتحصيل العلم ، وبالقراءة المفيدة ، وبالرياضة المباحة .

والحديث الشريف يرشد إلى أن الصوم يعين على العفة ، يقول ﷺ : (يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، فإنه أغض للبصر ، وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء) (٣) .

وقد وضع الله - عز وجل - قيوداً وحدوداً للغريزة الجنسية تكبح جماحها ، وتقتصر خطو من يهم أن يتنكب الجادة فى تحصيلها ، ويحيد عن طريق الفضيلة والحق والخير فى إشباعها . والله - سبحانه - يعلم أن رغبة الرجل فى المرأة غالبية عليه ، وأنه ربما تطلع إلى أخرى غير زوجته ، فيتخذ خلية ، يعاشرها معاشرة غير شرعية ، كما هو واقع من الذين لا يخافون الله ، ولا يخشون عقابه ، ولا يحسبون للفضيلة والشرف والعفة حساباً ، فأباح للرجل

١ . سورة الروم - الآية ٢١ .

(٢) سورة النور - الآية ٣٣ .

(٣) الباءة : النكاح . الوجاء - بكسر الواو - الواقى ، والحديث أخرجه البخارى فى الصوم والنكاح . ومسلم فى النكاح ، وأخرجه غيرهما .

يقول الله تعالى مخاطباً داود عليه السلام : ﴿يَا دَاوُدَ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾^(١) .

فاتبع الهوى مرة يغرى باتباعه مرات ، وحينئذ يغفل الإنسان عقله ، ويسير تبعاً لما يميل عليه هواه فيضل عن الحق ، ويتنكب الطريق القويم ، وينسى يوم الحساب ، وبهذا يستحق العذاب الشديد .

أما حين يتأبى الإنسان على هواه ، ويقاوم رغباته غير المشروعة ، ويرفض الانسياق وراء الشهوات فإن جانب التعقل فيه يقوى ، فيبصر طريقه ، ويسير على هدى ، وينجو من عثرات الغفلات .

٤ — المحافظة على المال :

أودع الله في نفس الإنسان غريزة التملك والاقتناء ، وكانت هذه ضرورة لبقاء نوعه ، فإن حياته مرهونة بما يملك من طعام وشراب ، وحياة النوع مرهونة بكل ما هو ضرورى لبقاء حياة الجماعة من حيوان ونبات وتجارة وصناعة .

وقد أشار القرآن إلى ذلك فى قوله تعالى : ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِدِ الْمَقْنُطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنُ الْمَآبِ﴾^(٢) .

(١) سورة (ص) - الآية ٢٦ .

(٢) سورة آل عمران - الآية ١٤ .

فإن ضرره محقق لا محالة ككل شريعة أخرى .

إن المصلح الاجتماعي ينظر فيرى مجتمعاً شاع فيه التعدد فقل فيه انتهاك الأعراض ، ويرى مجتمعاً آخر اقتصر فيه كل رجل على زوجة واحدة فشاع فيه اتخاذ الخليلات ، وكثر اللقطاء المشردون ، وانتشر الإجهاض بين الصغيرات والكبيرات فأى المجتمعين أفضل ؟ مع ما يلاحظه في المجتمع الثاني من كثرة العوانس والأرامل .

وقد شرع الإسلام عقوبة لمن يجرع عرض امرأة بأن يتهمها بالزنا دون أن يكون معه على ذلك دليل ، فأوجب أن يجلد القاذف ثمانين جلدة ، ويسمى هذا (حد القذف) ، وقد تضمنته الآية الكريمة : ﴿والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون﴾ إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم^(١) .

وقذف الرجل المحصن كقذف المحصنة ، في كليهما الحد ، والمتأمل في الآية الكريمة يرى أن فيها وعيداً شديداً للقاذف ، فهو فاسق ، وكفى بهذا الوصف معرة وخسة ، وهو مردود الشهادة ، وهذا حطٌّ من قدره ، وانتقاص من كرامته ، واستهانة به ، وهو مستحق للجلد ثمانين جلدة ، وكفى بهذا مهانة ، ولذلك عد القذف من كبائر الذنوب .

ومن ذلك - أيضاً - تبيين حرص القرآن على الأعراض وصيانتها .

وقد حرم الإسلام الزنا ، وسمّاه فاحشة ، وتوعد عليه بأقسى العقوبات ، كما حرم كل ما يؤدي إليه ، فأمر الرجال بغض أبصارهم ، وأمر النساء بغض أبصارهن ، وبألا يبيدين زينتهن ،

(١) سورة النور - الآيتان ٤ ، ٥ .

يقول الله تعالى مخاطباً داود عليه السلام : ﴿يَا دَاوُدَ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾^(١) .

فاتبع الهوى مرة يغرى باتباعه مرات ، وحينئذ يغفل الإنسان عقله ، ويسير تبعاً لما يميل عليه هواه فيضل عن الحق ، ويتنكب الطريق القويم ، وينسى يوم الحساب ، وبهذا يستحق العذاب الشديد .

أما حين يتأبى الإنسان على هواه ، ويقاوم رغباته غير المشروعة ، ويرفض الانسياق وراء الشهوات فإن جانب التعقل فيه يقوى ، فيبصر طريقه ، ويسير على هدى ، وينجو من عثرات الغفلات .

٤ — المحافظة على المال :

أودع الله في نفس الإنسان غريزة التملك والاقتناء ، وكانت هذه ضرورة لبقاء نوعه ، فإن حياته مرهونة بما يملك من طعام وشراب ، وحياة النوع مرهونة بكل ما هو ضرورى لبقاء حياة الجماعة من حيوان ونبات وتجارة وصناعة .

وقد أشار القرآن إلى ذلك فى قوله تعالى : ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِدِ الْمَقْنُطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنُ الْمَآبِ﴾^(٢) .

(١) سورة (ص) - الآية ٢٦ .

(٢) سورة آل عمران - الآية ١٤ .

وهذا أسمى ما تصل إليه التعاليم العالية في حفظ الأعراض ، ولو أن المسلمين التزموا بتعاليم الإسلام في هذا الشأن وفي غيره لكانت لهم السيادة والسعادة ، ولكن الكثير منهم - منذ القديم - انحرفوا عن الطريق القويم ، حتى قال ابن عباس - رضى الله عنهما : ثلاث آيات جحدن الناس : الإذن كله ، وقوله تعالى : ﴿إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ ، فقال الناس : أعظمكم بيتاً ، وقوله : ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ﴾

وقال الزمخشري عن استئذان الأطفال بعد أن يبلغوا الحلم : وهذا مما الناس عنه في غفلة ، وهو - عندهم - كالشرعية المنسوخة .

وعن ابن عباس : آية لا يؤمن بها أكثر الناس . آية الإذن ، وإني لأمر جاريتي (يريد زوجته) أن تستأذن عليّ . وعن الشعبي في آية الإذن أنها ليست منسوخة ، فقليل له : إن الناس لا يعملون بها ، فقال : الله المستعان ^(١) .

لقد شرع القرآن للإنسان ما يحفظ به نفسه ودينه وعقله وماله وعرضه ، ولكن الإنسان لشقوته « وسوء حظه أعرض وتأى بجانبه ، فاعتدى المسلم على نفس المسلم ، واعتدى على دينه بمخالفة الأوامر ، واتباع المنهيات ، ولم يحافظ على عقله فشرب ما يشره ، وهان عليه فقصر في الإبقاء عليه سليماً معافى ، واعتدى المسلم على مال المسلم ، وأكله بالباطل » واعتدى على عرضه فلم تكن له عنده حرمة ...

وهكذا يشرع القرآن ، ويمثل الأفلون ، ويتمرد على أحكامه الأكثرون والله المستعان .

(١) من تفسير الكشاف ج ٣ ص ٨٣ .

يقول الله تعالى مخاطباً داود عليه السلام : ﴿يَا دَاوُدَ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ (١).

فاتبع الهوى مرة يغرى باتباعه مرات ، وحينئذ يغفل الإنسان عقله ، ويسير تبعاً لما يميل عليه هواه فيضل عن الحق ، ويتنكب الطريق القويم ، وينسى يوم الحساب ، وبهذا يستحق العذاب الشديد .

أما حين يتأبى الإنسان على هواه ، ويقاوم رغباته غير المشروعة ، ويرفض الانسياق وراء الشهوات فإن جانب التعقل فيه يقوى ، فيبصر طريقه ، ويسير على هدى ، وينجو من عثرات الغفلات .

٤ — المحافظة على المال :

أودع الله في نفس الإنسان غريزة التملك والاقتناء ، وكانت هذه ضرورة لبقاء نوعه ، فإن حياته مرهونة بما يملك من طعام وشراب ، وحياة النوع مرهونة بكل ما هو ضرورى لبقاء حياة الجماعة من حيوان ونبات وتجارة وصناعة .

وقد أشار القرآن إلى ذلك فى قوله تعالى : ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِدِ الْمَقْنُطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنُ الْمَآبِ﴾ (٢).

(١) سورة (ص) - الآية ٢٦ .

(٢) سورة آل عمران - الآية ١٤ .

الباب الرابع

الفصل الأول

السُّلوك الأخلاق للإنسان كما يعرضه القرآن

وضع القرآن الكريم مبادئ عامة ، ووصف الإنسان بأوصاف خاصة ، وفي هذين يمكن أن نتبين الأسس التي أقام القرآن أخلاقه عليها تلك التي حثت الناس على التحلى بالفاضل منها ، والتخلى عن الشيء الممقوت حتى يعيشوا سعادة على هذه الأرض ، وحتى تقل بينهم الأحقاد والخصومات ، وتسود أفرادهم ومجتمعاتهم المحبة والألفة .

أما المبادئ العامة :

١ — فأولها الايمان بالله ، وباليوم الآخر :

ذلك أن الإنسان إذا اعتقد أن الله واحد ، لا شريك له ، وأن كل شيء بإرادته وتقديره ، وأن الناس لو اجتمعوا على أن ينفعوه لم ينفعوه إلا بشيء قد كتبه الله له ، ولو اجتمعوا على أن يضروه لم يضروه إلا بشيء قد كتبه الله عليه .

إذا اعتقد الإنسان ذلك تحررت إرادته ، وارتفعت نفسه فوق الضرورات ، وواجه الحياة بيقين الواصل أن الخضوع لصغائر الأمور لن يمنحه خيراً لم يكتب له ، وأن الاستعصام بمكارم الأخلاق لن يحرمه منفعة قدر له أن ينالها .

حينئذ - لصاحب المال الكثير ، والخير الوفير ، لأنه من عمل غيره لا من عمله ، حتى لو كان عن جهد منه وعمل ، وسعى وكد ، فما ينبغي أن يطغيه ، لأنه ما حصله إلا بفضل الله عليه ، وتيسير سبل الحصول له ، على أن الإنسان لا يأمن فجاءات القدر ، ولا أحداث الأيام ، فقد يثرى المعدم ، ويُملق صاحب الثراء العريض ، وكما قال الشاعر :

وقد تعدل الدنيا فيمسي غنيها

فقيرا ، وينغي بعد بؤس فقيرها

وقد نعى القرأتين الكريم على من يطغيهم المال ، ويبطريهم الثراء ، قال تعالى : ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ﴾ (١) .

كذلك لا فضل للإنسان فيما منحه الله من موهبة ، فأنحها هو الله ، وإذا نماها بالاكْتِسَاب فإن ذلك يدعوه إلى شكر الله الذي وفقه إلى أن يصل بموهبته إلى درجة رفيعة ، وينبغي أن يحمله هذا على التواضع لا على احتقار الآخرين ، والتعالى عليهم .

ومن شأن العلم النافع أن يحمل صاحبه على الرفق بمن لم يتيسر له تحصيل العلم ، وأن يعمل على تخليصه من وهدة الجهل ، وإشعاره بإنسانيته ، وليس أدعى للتواضع وغمط النفس من العلم ، إذا كان معه العقل .

أما الذي يتخذ العلم وسيلة للتعالى والتكبر فهو الجاهل حقا ، ولقد صدق أبو يوسف يعقوب بن إسحق الكندي الفيلسوف العربي في قوله : (العاقل من يظن أن فوق علمه علما فهو دائما يتواضع ،

(١) العلق - الآيتان ٦ ، ٧ .

إلى ربك المنتهى»^(١) و : «إن إلى ربك الرجعى»^(٢) . «بأيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً شاقاً»^(٣) . إلى آيات كثيرة في هذا المعنى .

وفي الآية الأخيرة وعد ووعد عظيم ، فالخطاب لكل إنسان على حدة ، فاللفظ وإن كان المراد منه كل الناس إلا أنه - في الظاهر - مفرد ، فكأن الله - سبحانه - يوجه هذا الخطاب إلى كل نفس بمفردها ، وفي التعبير بـ «إلى هنا إشارة إلى أن كل خطوة يخطوها الإنسان إنما هي سعى إلى نهايته ، فلقاء الله هو الغاية من الكدح ، تذكر ذلك الإنسان أو تجاهله وتناساه ، أو استولت على قلبه الغفلة فنسيه .

وهل هناك أدعى إلى أن يعمل المرء الطيبات من أن يذكر دائماً أن مصيره إلى الله ، وأن الموت نهايته ، ولكنه بداية لحياة أخرى ، يواجه المصير في جماعة ، وكأنه وحده .

إن صوتاً مرتفعاً واضحاً يتردد في داخل الإنسان يلفتته دائماً إلى هذه الغاية ، وإن كان بعض الناس يتجاهل هذا الصوت ، كأن لم يسمعه ، كأن في أذنيه قرأ .

أما الجزاء على العمل فهو حق ، وقد يكون شيء منه في الدنيا . قد يكون للمؤمن الطمأنينة والأمن والرضا « وقد يكون له أو لغيره المال والولد والجاه ، وما قدر له من نعيم الحياة ، يقول تعالى : ﴿من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها

(١) النجم - الآية ٤٢ .

(٢) العلق - الآية ٨ .

(٣) الانشقاق - الآية ٦ .

حينئذ - لصاحب المال الكثير ، والخير الوفير ، لأنه من عمل غيره لا من عمله ، حتى لو كان عن جهد منه وعمل ، وسعى وكد ، فما ينبغي أن يطغيه ، لأنه ما حصله إلا بفضل الله عليه ، وتيسير سبل الحصول له ، على أن الإنسان لا يأمن فجاءات القدر ، ولا أحداث الأيام ، فقد يثرى المعدم ، ويُمْلَق صاحب الثراء العريض ، وكما قال الشاعر :

وقد تعدل الدنيا فيمسي غنيها

فقيرا ، وينغي بعد بؤس فقيرها

وقد نعى القرأتين الكريم على من يطغيهم المال ، ويبطّرهـم الثراء ، قال تعالى : ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَإِغْفَىٰ﴾ (١) .

كذلك لا فضل للإنسان فيما منحه الله من موهبة ، فأنحها هو الله ، وإذا نماها بالاكْتِسَاب فإن ذلك يدعوه إلى شكر الله الذي وفقه إلى أن يصل بموهبته إلى درجة رفيعة ، وينبغي أن يحمله هذا على التواضع لا على احتقار الآخرين ، والتعالى عليهم .

ومن شأن العلم النافع أن يحمل صاحبه على الرفق بمن لم يتيسر له تحصيل العلم ، وأن يعمل على تخليصه من وهدة الجهل ، وإشعاره بإنسانيته ، وليس أدعى للتواضع وغمط النفس من العلم ، إذا كان معه العقل .

أما الذي يتخذ العلم وسيلة للتعالى والتكبر فهو الجاهل حقا ، ولقد صدق أبو يوسف يعقوب بن إسحق الكندي الفيلسوف العربي في قوله : (العاقل من يظن أن فوق علمه علما فهو دائما يتواضع ،

(١) العلق - الآيتان ٦ ، ٧ .

٢ - الناس أمام الله سواء :

وينبغي أن يكونوا فيما بينهم كذلك ، لا فضل لعربى على عجمى ، ولا لأبيض على أسود ولا لذكر على أنثى ، ولا لغنى على فقير ، ولا لعالم على جاهل إلا بالعمل الصالح ، والسلوك الطيب ، ومدى النفع الذى يحققه أحدهم لدينه ولأتمته ولوطنه ، بل للإنسانية كلها ؛ ذلك أنهم جميعاً من أب واحد وأم واحدة ، ويعبدون إلهاً واحداً وقد جعل الله - سبحانه - القانون بينهم التعارف لا التناكر ، والتواصل لا التقاطع ، والمحبة والإخاء لا العداوة والبغضاء : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (١) .

فالله - سبحانه - هو الذى خلقهم جميعاً ، وهو الذى جعلهم شعوباً وقبائل ، وهو الذى يناديهم بهذه الكلمة العامة : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ ، فلا فضل لأحد منهم فى أصل وجوده ولا فى موضعه من قوم بأعيانهم ، ولا ميزة له عند الله إلا بالتقوى ، ومنها العمل لخير الإنسانية أما الجنس واللون ، وأما الأحساب والأنساب ، وأما المواهب والاستعدادات ، وأما الغنى والفقير فلا ينبغي أن تكون موضع تفاضل إلا بمقدار ما يكون من تقوى وبر وخير . فلا يتعالى ذو النسب الشريف على ذى النسب الوضيع ، لأنه لا فضل للفرد فى نسبه ولا فى لونه ، وما نفع الأصول إذا تخلقت الفروع ؟ وما ذنب إنسان فى لون بشرته .

ولا يتكبر غنى على فقير ، فقد يكون المال موروثاً ، فلا فضل -

(١) سورة الحجرات - الآية ١٣ .

حينئذ - لصاحب المال الكثير ، والخير الوفير ، لأنه من عمل غيره لا من عمله ، حتى لو كان عن جهد منه وعمل ، وسعى وكد ، فما ينبغي أن يطغيه ، لأنه ما حصله إلا بفضل الله عليه ، وتيسير سبل الحصول له ، على أن الإنسان لا يأمن فجاءات القدر ، ولا أحداث الأيام ، فقد يثرى المعدم ، ويُمْلَق صاحب الثراء العريض ، وكما قال الشاعر :

وقد تعدل الدنيا فيمسي غنيها

فقيرا ، ويغنى بعد بؤس فقيرها

وقد نعى القرأتين الكريم على من يطغيهم المال ، ويبطريهم الثراء ، قال تعالى : ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظِرٌ ﴾ (١) .

كذلك لا فضل للإنسان فيما منحه الله من موهبة ، فأنحها هو الله ، وإذا نماها بالاكْتِسَاب فإن ذلك يدعوه إلى شكر الله الذي وفقه إلى أن يصل بموهبته إلى درجة رفيعة ، وينبغي أن يحمله هذا على التواضع لا على احتقار الآخرين ، والتعالى عليهم .

ومن شأن العلم النافع أن يحمل صاحبه على الرفق بمن لم يتيسر له تحصيل العلم ، وأن يعمل على تخليصه من وهدة الجهل ، وإشعاره بإنسانيته ، وليس أدعى للتواضع وغمط النفس من العلم ، إذا كان معه العقل .

أما الذى يتخذ العلم وسيلة للتعالى والتكبر فهو الجاهل حقا ، ولقد صدق أبو يوسف يعقوب بن إسحق الكندى الفيلسوف العربى فى قوله : (العاقل من يظن أن فوق علمه علما فهو دائما يتواضع ،

(١) العلق - الآيتان ٦ ، ٧ .

والجاهل من يظن أنه تناهى في علمه فيتكبر ، فتمقته القلوب) .
ولا شك أن الإنسانية خسرت ، ولا تزال تخسر كل يوم من
جفاء ما ترتكبه حماقات بعض الحكام ، وجهالات بعض الشعوب
من اتخاذ التفرقة العنصرية ديناً عنه تصدر في كل تصرفاتها ، ومنه
تنبع كل حماقاتها ، فما جنت الشعوب من ذلك إلا الأحقاد
والضغائن ، والعداوات والتمزق ، والمواجهة المسلحة أحياناً ، التي
تذهب بأرواح الناس وأمنهم ، وتعكر عليهم صفو حياتهم .
وماذا يضير العالم المتحضر ، بل العالم المتخلف أن يعطى كل
إنسان حقه في الحياة ، وأن يوفر له حظه من التقدير والاحترام ،
وينال ما يستحق من ثروة وطنه وخيراته ؟

وأى كارثة تحل بهذه الشعوب لو سادت بينها المودة والائخاء ،
وجلس الأبيض إلى جوار أخيه الأسود ، يشعره بأن الإنسانية في
ذاتها شرف ، وأن الرابطة بينها لها قداستها ، فالجميع من آدم ،
وآدم من تراب ؟

ومن عجب أن هذا الداء الويل (التفرقة العنصرية) يتفشى في
بعض الدول المتسلطة على مرأى ومسمع من دول كثيرة تدعى
التقدم والحضارة فلا تكتفى بإغماض عينيها عنه ، بل تساعد هذه
الدولة ، اقتصادياً وسياسياً ، ثم يتشدقون بأنهم أنصار حقوق
الإنسان .

إن الإسلام منذ غمر نوره هذا الوجود حارب العنصرية ،
ونهى القرآن الكريم أن يسخر الإنسان من أخيه الإنسان لأى سبب
من الأسباب : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ
يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءِ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا

ويرى أن الحق ما قيل من أن الإنسان في الآية عام ، ويورد عليه ما جاء في الأخبار من أن ما يأتي به القريب من الصدقة والصوم والدعاء يصل إلى الميت ، فلإنسان شيء لم يسع فيه ، كما يورد ما ثبت ثبوتاً قاطعاً من مضاعفة الحسنات في مثل قوله تعالى : ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾^(١) وهو فوق ما سعى . وأجاب عن الأول بأن الإنسان إن لم يسع في أن يكون له صدقة القريب بالإيمان لا يكون له صدقته ، فليس له إلا ما سعى . وأجاب عن الثاني بأن الله تعالى لما وعد المحسن بالإحسان إليه بالمضاعفة العشرة ومازاد فإذا أتى المسلم بحسنة راجياً أن يؤتيه الله ما يتفضل به فقد سعى في الأمثال .

ويحذو حذو الرازي تلميذ من أخص تلاميذ ابن تيمية في العصر الحديث هو السيد رشيد رضا ، فيذكر قول الله تعالى : ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾^(٢) . ويقول إن هذه (قاعدة من أصول دين الله تعالى الذي بعث به جميع رسله ، كما قال في سورة النجم) ويذكر الآيات التي نحن بصدد الحديث عنها .

ويؤكد أن (من قال بانتفاع الميت من كل عمل يعمل له وإن لم يكن العامل ولده فقد خالف القرآن ، ولا حجة في الحديث الصحيح ، ولا في القياس الصحيح) .

وتمسك بما جاء صريحاً في بعض الأحاديث من أن انتفاع الميت ثابت إذا كان من ولده ، كما في قوله ﷺ : (إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع

(١) سورة الأنعام - من الآية ١٦٠ .

(٢) سورة الأنعام من الآية ١٦٤

يبدو من سياق الآيات أنها نزلت في شخص معين بذل من أمواله في سبيل الدعوة ، ثم خدعه بعض المضللين ، ووعدته بأنه سيتحمل عنه العذاب يوم القيامة « فامتنع عن الإعطاء ، وهو معنى (أكدى) ، وقد خسر هذا الرجل لأنه لا يعلم الغيب ، فيكون على يقين من أن صاحبه سيتحمل عنه يوماً من العذاب ، وجهل ما جرت عليه سنة الله في الأولين والآخرين : لا تحمل نفس جريرة نفس أخرى « ولا ينفع إنساناً سعى إنسان آخر ، وكل إنسان مجزى بعمله ، جزاء وافياً ، وفوق الوافى .

وقد ورد في القرآن ما لعله يفهم منه أنه استثناء من هذه القضية الكلية ، وذلك في قوله تعالى : ﴿وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم وما هم بمحاملين من خطاياهم من شيء إنهم لكاذبون . وليحملن أثقالهن وأثقالا مع أثقالهن وليستلن يوم القيامة عما كانوا يفترون﴾^(١) .

في الآية الأولى يكذب الله الذين كفروا حين وعدوا المؤمنين بأنهم يحملون عنهم ذنوبهم إن اتبعوهم « وكفروا بما أنزل على محمد .

وفي الآية الثانية يخبر سبحانه أن الكفار سيحملون ذنوبهم ، وذنوباً أخرى في الظاهر أنها ذنوب آخرين ، ولكنها في الحقيقة ذنوبهم أيضاً ، فهم يحملون وزر ما فعلوا ، ووزر إضلال غيرهم ، فإن من أغوى إنساناً كان عليه ذنبان : ذنب الغواية ، وذنوب الإغواء ، فهو ذنبه لا خفاء في ذلك .

وهذا ما جا في الحديث الشريف : (من سن في الإسلام سنة

(١) سورة العنكبوت - الآيتان ١٢ ، ١٣ .

هذا . وقد عرض الأستاذ العقاد لهذه القضية في فصل عنوانه (المخلوق المستول) فلم يزد عن أن (الإنسان مستول عن عمله - فردا وجماعة - لا يؤخذ واحد بوزر واحد ، ولا أمة بوزر أمة) ^(١) .

وأورد قوله تعالى : ﴿كل امرئ بما كسب رهين﴾ ^(٢) وقوله تعالى : ﴿تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون﴾ ^(٣) . فاقصر - كما نرى - على وجه واحد من وجهى القضية ، ولم يطل فيها .

وأما الأوصاف الخاصة بالإنسان التى نبه القرآن إليها - وهو - دائماً - يذكر المصلحين والمربين بها ليسلكوا الطريق القويم فى تربية الناشئة ، واصلاح أحوال الأمم - فنها :

١ - الفطرة خيرة :

وقد عرفنا الجدل الطويل الذى احتدم بين الفلاسفة والحكماء فى القديم والحديث حول الفطرة الإنسانية . فقال قوم : إن فطرة الإنسان خيرة ، ونفس الطفل معدة للكمال ، أودع الله فيها الاستعداد للفضائل ، وأوجد فيها من الغرائز والميول والتزعات ما يعينها على حياة فاضلة . وقال آخرون : إن الفطرة شريرة ، وأن الغرائز والميول التى

(١) الإنسان فى القرآن ص ١٢ .

(٢) سورة الطور - من الآية ٢١ .

(٣) سورة البقرة - الآية ١٤١ .

والمشهور من مذهب الشافعي أن قراءة القرآن لا يصل ثوابها ، وقال جماعة من أصحابه يصله ثوابها ، وبه قال أحمد بن حنبل ، وأما الصلوات ، وسائر التطوعات فلا يصله عند الشافعي والجمهور ، وقال أحمد : يصله ثواب الجميع ^(١) .

وقال ابن تيمية - رحمه الله - : (وكذلك ظن قوم أن انتفاع الميت بالعبادات البدنية من الحى ينأى قوله تعالى : ﴿وَأَنْ لِّىْس لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ فليس الأمر كذلك ، فإن انتفاع الميت بالعبادات البدنية من الحى بالنسبة للآية كانتفاعه بالعبادات المالية ، ومن ادعى أن الآية تخالف أحدهما دون الآخر فقله ظاهر الفساد ، بل ذلك بالنسبة إلى الآية كانتفاعه بالدعاء والاستغفار والشفاعة ، وقد بينا في غير هذا الموضع نحوه من ثلاثين دليلاً شرعياً يبين انتفاع الإنسان بسعى غيره .

إذ الآية إنما نفت استحقاق السعى وملكه ، وليس كل ما لا يستحقه الإنسان ولا يملكه لا يجوز أن يحسن إليه مالكة ومستحقه بما ينتفع به منه ، فهذا نوع ، وهذا نوع ، وكذلك ليس كل ما لا يملكه الإنسان لا يحصل له من جهته منفعة فإن هذا كذب في الأمور الدينية والدنيوية ^(٢) .

وكان ابن تيمية يرد على الفخر الرازى وعلى غيره ممن يرى رأيه ، فأولاً يضعف الفخر القول بأن المراد بالإنسان في الآية (الكافر) ويحكم على القول بأن الآية منسوخة ، وأن ما تضمنته كان شرع من تقدم « وأن الله جعل للإنسان من أمة محمد ما سعى وما لم يسع فيه ، يحكم على هذا القول بأنه (باطل) وأنه من التكلف .

(١) تفسير الخازن ج ٤ ص ٢٢٠ .

(٢) فتاوى ابن تيمية ج ١٨ . ص ١٤٣ ، وينظر ج ٢٤ أيضاً .

يجرد نفساً منها ، وذلك ما يدل عليه قوله تعالى : ﴿لَا تَبْدِيلَ لَخَلْقِ اللَّهِ﴾ ، ولكن يمكن أن تتلبد السحب والغيوم في سائتها الصافية فتحببها أحياناً ، فتعيد عن طريق الفطرة بما يعرض لها من العالم الخارجى ، فتتغلب عليها الأهواء والتزعات والميول التى تأثرت بالعوامل الخارجية ، وتزين لها الشهوات الجامحة ، وبذلك تخرج الغرائز عن اعتدالها ، وتتجاوز القوى النفسية حدودها ، فقوة الغضب - مثلاً - تخرج عن هدفها الأصيل ، وهو المحافظة على وجود الإنسان ، والدفاع عن حقوقه وحرياته إلى أن تصبح وسيلة للاعتداء على الآمنين ، والتسلط على الضعفاء ، وإلى أن تزين لأصحابها أن (القوة فوق الحق) وأنه : (لا بقاء للضعيف) ، كما تصبح بذلك بعض الفلسفات الغربية ، وتترسمه بعض الدول عملياً .

ولقد عاشت بعض الدول الأوربية زمناً تدين بفلسفة (نيتشة) التى يمثلها قوله : (على أن البقاء يكون للأقوى ، وعلى أنه ليس من حق الضعيف أن يعيش) ، وقوله : (إن صفة التسامح والرحمة والعون اذا عُدت من الفضائل ، فإنها من فضائل الداعرات الساقطات) .

وفى أيامنا هذه تنهج بعض الدول الكبرى نهج هذه الفلسفة ، وإن كانت تتظاهر بنصرة العدل والحق ، والدفاع عن حقوق الإنسان ، والأمثلة كثيرة ، وبارزة للعيان .

ومن هنا لا نكاد نرى حياة مستقرة فى شعب من الشعوب ، فعلاقات الأفراد بعضهم ببعض إذا قامت على مبدأ القوة فوق الحق عاشوا فى صراع مستمر ، لأن الظفر يكون للأقوى ، ولكنه فى الحقيقة ظفر ظاهرى لا يحقق له السعادة التى ينشدها ، لأن العداء

به ، أو ولد صالح يدعوه له) ^(١) .
ويقول : (وقد ألحق ذرية المؤمنين بهم بنص القرآن ، وصح في الحديث أن ولد الرجل من كسبه) .
فإذا ورد في الحديث (فليصم عنه وليه) جعل الراجح المختار أن المراد بالولي (الولد) قال : (لينطبق على الآيات والأحاديث الأخرى) .
فإذا وردت في بعض الروايات (الأخت) يقول إن (ذكر الأخت غلط ظاهر) قال : (وأما قياس عمل غير الولد على عمله فباطل) .
ويقول إن مذهب أشهر أئمة الفقه أنه لا يصام عن الميت مطلقاً ، قال ومنهم أبوحنيفة ومالك والشافعي والإمام زيد بن علي والهادوية والقاسم من العترة .
ثم يقول : (وقد غفل عن ذلك من عودونا استدراك مثله على المتقدمين كشيخ الإسلام والشوكاني من فقهاء الأحاديث المستقلين) .
قلتُ : ومع ما قاله الرازي ، وما أطال به السيد رشيد أرى أن الحق مع ابن تيمية ومن سبقه من علماء ومن تبعه من أن وصول أعمال البر تصل إلى الميت ولو كانت من غير ولده .
فأجابه الرازي عن الأول ضعيفة ، والتكلف بادٍ في كثير مما أوّل به السيد رشيد الأحاديث الصريحة الواضحة ، وفيما ذكره ابن تيمية من الصور التي ينتفع فيها الميت بعمل الحي ما يرد كل ما ذهب إليه رشيد رضا .

(١) رواه الدارمي وابن ماجة .

حينئذ - لصاحب المال الكثير ، والخير الوفير ، لأنه من عمل غيره لا من عمله ، حتى لو كان عن جهد منه وعمل ، وسعى وكد ، فما ينبغي أن يطغيه ، لأنه ما حصله إلا بفضل الله عليه ، وتيسير سبل الحصول له ، على أن الإنسان لا يأمن فجاءات القدر ، ولا أحداث الأيام ، فقد يثرى المعدم ، ويُمْلَق صاحب الثراء العريض ، وكما قال الشاعر :

وقد تعدل الدنيا فيمسي غنيها

فقيرا ، ويغني بعد بؤس فقيرها

وقد نعى القرأتين الكريم على من يطغيهم المال ، ويبطريهم الثراء ، قال تعالى : ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَإِطْفَىٰ ۚ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ۚ ﴾ (١)

كذلك لا فضل للإنسان فيما منحه الله من موهبة ، فأنحها هو الله ، وإذا نماها بالاكْتِسَاب فإن ذلك يدعوه إلى شكر الله الذي وفقه إلى أن يصل بموهبته إلى درجة رفيعة ، وينبغي أن يحمله هذا على التواضع لا على احتقار الآخرين ، والتعالى عليهم .

ومن شأن العلم النافع أن يحمل صاحبه على الرفق بمن لم يتيسر له تحصيل العلم ، وأن يعمل على تخليصه من وهدة الجهل ، وإشعاره بإنسانيته ، وليس أدعى للتواضع وغمط النفس من العلم ، إذا كان معه العقل .

أما الذي يتخذ العلم وسيلة للتعالى والتكبر فهو الجاهل حقا ، ولقد صدق أبو يوسف يعقوب بن إسحق الكندي الفيلسوف العربي في قوله : (العاقل من يظن أن فوق علمه علما فهو دائما يتواضع ،

(١) العلق - الآيتان ٦ ، ٧ .

غرست في نفس الإنسان منذ الولادة شريرة بطبعها ، ومن هؤلاء شعراء العربية المتشائمون أمثال أبي العلاء المعري الذي يقول :
ونحن في عالمٍ صيغت أوائله

على الفساد ، ففى قولنا فسدوا
وقال فريق ثالث : إن الفطرة لا توصف بأنها خيرة أو شريرة .
وإن نفس الطفل بيضاء ، قابلة للخير والشر .

وقد حسم القرآن الكريم هذه القضية حين أوحى إلى رسوله أن
الفطرة خيرة ، وأنها الدين القيم : ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ
اللّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقِيمَ وَلَكِنَّ
أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(١) .

فالإنسان يولد ، وبذور الفطرة السليمة مغروسة في نفسه
اعتقاداً وعملاً ، فلو ترك الطفل وشأنه دون مؤثرات خارجية لأدرك
أن له خالقاً قادراً عليمًا ، ولتيز بين الحسن والقبيح ، والحق
والباطل ، والنافع والضار ، ولوجد في نفسه الميل إلى كل ما هو
خير .

كذلك يولد الطفل وفي تكوينه الروحي غرائز كلها ضرورية
لحفظ حياته ، ولبقاء الجنس البشري ، وذلك ما يشير إليه النبي -
ﷺ - في بعض أحاديثه عن الله تعالى : (كل عبادى خلقت حنفاء
فاجتالهم الشياطين ، وأمروهم أن يشركوا بى غيرى)^(٢) .
ومعنى : (اجتالت الشياطين) حولتهم ، وأبعدتهم عن مقتضى
الفطرة .

ففطرة الإنسان السليمة مغروسة في نفسه ، لا يمكن لأحد أن

(١) سورة الروم - الآية ٣٠ .

(٢) مختصر مسلم من حديث عياش بن حمار ، به وأتم منه .

الكفر ، كما تذكر الآية الكرعة : ﴿وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفوراً﴾^(١) .
ثم يبدو في مواقف أخرى ذليلاً ، ضارعاً إلى الله ، طالباً النجاة ، وقد جاء ذلك في آيات كثيرة في القرآن ، منها قوله تعالى :
﴿وإذا مس الإنسان ضرراً دعى ربه منياً إليه ثم إذا خوله نعمة منه نسى ما كان يدعو إليه من قبل وجعل لله أنداداً ليضل عن سبيله﴾^(٢) .

وهذه الآية ومثيلات لها تتضمن شأنين عجيبين من شأن بعض الناس فهذا الصنف من الناس يلجأ إلى الله إذا وقع في الشدة ، فإذا زالت عنه ، وغمرته نعمة الله عاد إلى كفره دون أن يحجزه عقل ، أو يخجله حياء .

٣ - وقد حدثنا القرآن - أيضاً - عن بعض الميول والتزعزعات التي تتأصل في الإنسان بفعل المؤثرات الخارجية ، فتغلب على الفطرة .

فالإنسان (عجول) حتى أنه ليدعو على نفسه - أحياناً - بالشر دعاءه بالخير ، و ﴿إن الإنسان خلق هلوعاً . إذا مسه الشر جزوعاً وإذا مسه الخير منوعاً﴾^(٣) .

ولكن ليست هذه صفة عامة الناس ، بل منهم من لا يجزع إذا مسه الشر ، ولا يمنع إذا ناله الخير . وقد ذكر الله أوصاف هؤلاء ، بعد هذه الآية في قوله سبحانه : ﴿إلا المصلين ... الآيات﴾^(٣)

(١) سورة الفرقان - الآية ٦٠ .

(٢) سورة الزمر من الآية ٨ .

(٣) سورة المعارج - الآيات ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٣٥ .

والبغض والحقد والترصص تهدد - دائماً - أمنه وسلامه ، والحق نفسه بطارد القوى ، ويشعره دائماً بأنه ظالم متعدي ، وهذا نفسه عذاب نفسي لا بد أن يصطلي به الكثيرون من أولئك الذين لا يتعاملون إلا من منطق القوة .

ومن هنا - أيضاً - احتدمت الخلافات ، ونشبت الحروب بين الدول ، وتسابق علماءهم في اختراع أسلحة الدمار التي نعتقد أنها ستقضي على البشرية في يوم من الأيام بعد أن تكون قد حطمت المقومات المعنوية ، وعكرت صفو الحياة في الأحقاب التي تسبق العاصفة الهوجاء المدمرة .

ولو رجع الناس إلى فطرتهم هديهم إلى أن الحق فوق القوة ، فيستريح الأفراد ، وتستقر الدول ، إذ يسود - العدل ، وتنتعش الحرية ، وتعم المساواة ، ويزدهر الإخاء القائم على الحب والخير . ومن أهم المؤثرات على الفطرة - كما يشير القرآن الكريم - البيئة ، ولا ينكر أحد من علماء الاجتماع ما للبيئة من أثر على الأفراد والجماعات ، ولكن فضل القرآن أنه سبق ، وأن إشارته إلى ذلك في غاية الدقة ، والصدق والعمق .

يقول الله تعالى مخاطباً النبي - عليه الصلاة والسلام - ومن معه من المؤمنين : ﴿ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار﴾ (١) . وقد أكثر المفسرون القول في معنى الركون ، وفي بيان المراد من الظلم ، وفي ترتيب مسّ النار على هذا الركون ، ولكن لنا أن نفهم - والتعبير القرآني لا يتأني علينا - من الآية الكريمة أمرين : الأول : أن الميل إلى الظالمين - مع ما فيه من الرضا بأقوالهم

(١) سورة هود - الآية ١١٣ .

ولكنه مغرور ، يدعى أنه قهر الطبيعة ، وأنه من القدرة والجبروت
بحيث يستطيع أن يقهر كل الأعداء ، وقديماً سخر شاعرنا المعري
من أمثال هؤلاء إذ يقول :

سمى ابنه أسداً وليس بآمن

ذباً عليه إذا أطل الذئبُ

والإنسان ضعيف أمام عواطفه ، فقد يكون ذا هبة ومكانة في
قومه ، أو صاحب سلطان وجيوش ، أو ربيب ملك وسيادة ، ثم
لا يقوى أمام عاطفة تسيطر عليه ، وتستبد به ، فيأتي من الأفعال
ما ينكره هو على نفسه .

ولقد صدق العباس بن الأحنف إذ يقول :

وكم من كريم قد أضر به الهوى

فعوده ما لم يكن يتعوّد

وصدق الآخر الذي قال :

إذا أنت لم تعص الهوى قaddock الهوى

إلى بعض ما فيه عليك مقال

وقديماً أحب أحد الخلفاء المسلمين ثلاث جوار له ، فتدللن
عليه مرة ، فترضاهن فتأين عليه ، فقال فيهن أبياتاً كان منها :

ما لي تطاوعني البرية كلها

وأطيعهن وهن في عصياني

وصدق الله العظيم في قوله سبحانه : ﴿ والله يريد أن يتوب
عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً . يريد الله
أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً ﴾ (١) .

(١) سورة النساء - الآيتان ٢٧ ، ٢٨ .

ترك كل منها في صاحبه أثراً ، والشرير أقواها ، وأسرعها تأثيراً .
وقد سبق الجاحظ علماء النفس إلى التنبيه لهذا الأثر النفسي ،
وذلك إذ يقول : لا تجالس الحمقى والمفسدين فإنه يعلق بك من
مجالستهم من الفساد ما لا يعلق بك من مجالسة العقلاء دهرًا من
الصلاح ؛ فإن الفساد أشد التحاماً بالطباع .

وقد نقل بعض ما قيل في سرعة انتقال الخلق السيء : إلى
لأجالس الأحمق ساعة فأتين ذلك في عقل .

وينبغي أن نؤمن إيماناً راسخاً أن لكل كلمة في القرآن ، بل
لكل حرف دلالة عميقة ، فهمها من فهمها ، وجهلها من جهلها ،
ولا يضر جهلنا بهذه الدلالة فلا بد أن يجيء من يفهمها على
وجهها ، أو يفهم منها معنى آخر لم يهتد إليه من سبقوه ، فلا غرو أن
يكون لهذه القاء : « فتمسكم » معانٍ ، هذا الذي أشرنا إليه
بعضها .

٢ - ولكن هذه الفطرة لا تموت ، بل قد تنفض عن جوهرها
الغبار ، وتبدو على حقيقتها عندما تضطرها ظروف الحياة إلى
الظهور .

فالقرآن الكريم حدثنا أن أولئك الذين كفروا بدعوة محمد ،
وبالغوا في العناد والجحود ، وأصروا على عبادة الأوثان كانوا إذا
سئلوا من خلق السموات والأرض يقولون : خلقهن العزيز العليم .
وحدثنا القرآن أن الإنسان يعرض عن الله ، وقد ينسى أن له
خالقاً قادراً ، فإذا نزلت به كارثته ، أو حاقت به محنة في نفسه أو
ولده أو ماله رجع إلى الله ، ودعاه منيباً إليه ، مخلصاً له ، طالباً
كشف الضر عنه .

هذا الإنسان الذي يبدو في موقف بالغ الوقاحة ، أصلع

مقاومة الميل إلى النساء ، ولا يحمل ثقل التضييق عليه في الاستمتاع
بهن ، فمن رحمته تعالى لم يحرم عليه منهن إلا ما في إباحته مفسدة
عظيمة^(١) .

والإنسان ضعيف في عقله ، فها خيّل إليه أنه وصل إلى
المجاهيل من هذه الأكوان فهو لا يزال في أول الطريق .

جاء البحار ، وأخضع القفار ، ووصل إلى القمر ، واخترع
المهلكات والمدمرات وأغنى الحياة بما اخترع من أسباب الرق
والتقدم ، ولكن هل عرف نفسه التي بين جنبيه ؟ هل يستطيع بعلم
ويقين أن يجيب عن هذه الأسئلة : ما الروح ؟ ما الفكر ؟ ما
العقل ؟ وأين تكمن هذه القوى ؟ .

وهو يعرف - ولا شك - أن القمر الذي وصل إليه لا شيء
يجانب الملايين من الكواكب السيارة التي تبلغ خمسمائة ملايين من
المجاميع مضروبة في (٥) أمامها أربعة عشر صفراً ، وفي كل مجموعة
منها يوجد مائة مليار من النجوم ، ويقدر علماء الفلك أن أقرب
مجموعة من النجوم « وهي التي نراها في الليل كخيوط بيضاء دقيقة
تضم حيزاً مداه مائة ألف سنة ضوئية^(٢) .

فأين هو من هذا الكون الذي لا يدرك مداه لا في الحقيقة ولا
في الخيال ؟ وهل الشمس والقمر والأرض إلا قطرات صغيرة في
محيط الكون الكبير ؟

فقد كشف أخيراً أصغر نجم عمره ألفا سنة ، وهو قدر الشمس
أربعين مرة ، وحرارته ضعف حرارتها عشر مرات ، ومغروف أن

(١) تفسير المنار ج ٥ ص ٣٧ .

(٢) ذكر ذلك الباحث وحيد الدين خان الباكستاني في كتابه : (الإسلام يتحدى) .

أولئك الدائمون على صلاتهم ، المحافظون عليها ، المؤدون لحق السائل والمحروم ، المصدقون بيوم الدين ، المشفقون من عذاب ربهم ، المحافظون لفروجهم عما حرم الله ، المؤدون لأماناتهم ، القائمون بشهاداتهم : ﴿أولئك في جناتٍ مكرمون﴾ .
والإنسان يحب المال حباً جماً ، كما يقول سبحانه : ﴿إنَّ الإنسانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ . وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لِشَهِيدٌ . وَإِنَّهُ لَحَبَّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ (١) .

وقد ذكر أن المراد بالإنسان في هذه الآية شخص معين هو : (قرط بن عبدالله) (٢) ، وقيل المراد الكافر .

فهو يحدد نعمة الله عليه « وقليل من عباد الله الشكور ، وهو يشهد على نفسه بذلك ، لا ينكره ، ولا يمارى فيه ، وهو حريص على جمع المال ، محب ، شديد الحب له .

والإنسان - مع تبجحه وتعاضمه ، وتعاليه بقوته - خلق ضعيفاً ضعيف في جسمه ، تقتله الجرثومة التي لا ترى إلا بالمجهر ، ويقلقه اليسير من الألم ، يصيب عينه أو أذنه ، أو أى عضو آخر في جسمه ، وتتهار قواه الجسمية والنفسية حين ينزل الموت بعزير لديه ، أو تحتاج جائحة ماله .

وهو ضعيف أمام غضب الطبيعة حين تعصف الرياح ، أو يهيج البحر ، أو تتور البراكين ، أو ترجه الزلازل ، وعلى مبلغ ما وصل إليه من علم لم يصل إلى ما يدفع عنه خطراً من هذه الأخطار ،

(١) سورة العاديات - الآيات ٦ ، ٧ ، ٨ .

(٢) بصائر ذوى التمييز ج ٢

أما آية : ﴿إنَّ الإنسانَ خلقَ هلوفاً﴾ فقيل : نزلت في الأخنس بن شريق ، ولكن العموم ظاهر فيها بدليل الاستثناء .

أن يبصره الطريق ، وأن يهديه سواء السبيل ، وأن يلهمه رشده ،
وأن يعدده عن طريق الغواية ، فأمره ونهاه ، ووعدده وأوعده ،
ورغبه ورهبه ، وأوضح له الفضائل ، وبيّن له الرذائل ، وأودع
ذلك كله في القرآن الكريم ، فكانت آياته شارحة للقوى المبثوثة في
فطرته ، ومذكّرة بما لا يجهله عقله .

ثم غرس في فطرة الإنسان ما يراقب سلوكه ، ويحرس
تصرفاته ، وحاطها بسياج من التعاليم تجعلها يقظة دائماً .
كما أودع في نفسه قوة تعينه على تحصيل الفضائل ، ونبذ
الرذائل .

أما المراقب فهو الضمير ، وأما القوة المعينة فهي الإرادة .

وتكاد تجمع كلمات المفسرين على أن المراد بالضعف هنا عدم الصبر عن الشهوات ، ويضيف بعضهم عدم الصبر على مشاق الطاعات ، وقليل من رأى أن الضعف هنا عام .

عن سعيد بن المسيب : (ما أيسر الشيطان من بني آدم قط إلا أتاهم من قبل النساء ، فقد أتى على ثمانون سنة ، وذهبت إحدى عيني ، وأنا أعشو بالأخرى ، وإن أخوف ما أخاف على فتنة النساء) .

ذكر ذلك الرمخشي عند تفسيره لهذه الآية بعد أن فسر هو ضعف الإنسان المراد فيها بأنه : (لا يصبر عن الشهوات ، وعلى مشاق الطاعات) .

وقال الفخر الرازي : (والمعنى أنه تعالى لضعف الإنسان خفف تكليفه ، ولم يثقل ، والأقرب أن يحمل الضعف في هذا الموضع لا على ضعف الخلقة ، بل يحمل على كثرة الدواعي إلى اتباع الشهوات واللذات ، فيصير ذلك كالوجه في أن يضعف عن احتمال خلافه) . ونقل عن القاضي عبد الجبار بأن التأثير في هذا الباب لضعف الداعية وقوتها ، لا لضعف البدن وقوته ، ووصف الرازي كلام القاضي بأنه (كلام حسن) .

وقال الخازن : (ضعيفاً . أى في قلة الصبر عن النساء ، فلا صبر له عنهن ، وقيل : إنه لضعفه يستميله هواه فهو ضعيف العزم عن قهر الهوى ، وقيل : هو ضعف في أصل الخلقة لأنه خلق من ماء مهين^(١)) .

وقال السيد رشيد رضا : (وخلق الإنسان ضعيفاً لا يقدر على

(١) ج ١ ص ٤١٣ .

وإن لم يقارنها الفعل : ﴿الله ما في السموات وما في الأرض وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله﴾ (١) .
 فإذا علم الإنسان أن الله مطلع عليه ، وأنه له بالمرصاد ، وأنه محاسبه على ما يخفيه في نفسه كان حذراً دائماً يحدّد في كل حين صلته بربه ، ويستشعر الخوف من غضبه ، ومحاسب نفسه على الخاطرة تخطر له ، فإذا استقام على ذلك استيقظت القوة الكامنة في نفسه ، والتي تشبه الجوهرة ، ووقفت له بالمرصاد كلما همّ بالخروج عن الجادة نهته ، فإذا وقع في المنكر ألهمته بسياطها ، ونغصت عليه حياته ، وانتفضت في نفسه حاكمة « قاسية الحكم تحذره أن يعود لمثلها .

ثم ينبه القرآن الإنسان إلى أنه لم يخلق عبثاً ، وأنه راجع إلى ربه ، وأن عليه واجبات نحو ربه ، ونحو نفسه ، ونحو المجتمع الذي يعيش فيه : ﴿أفحسبتم أننا خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون﴾ (٢) .
 وأن الله - سبحانه - لا يهمل الإنسان ، فهو لا يتركه سدى ، ولا يدعه هملأ .

وفي القرآن الكريم آية على كل مسلم أن يتدبرها غاية التدبر ليكون دائماً خائفاً راجياً ، محاسباً لنفسه ، خشية أن يقع ما لم يكن له في حسابان ، تلك هي قوله وتعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون﴾ (٣) .

(١) سورة البقرة - الآية ٢٨٤ .

(٢) سورة (المؤمنون) - الآية ١١٥ .

(٣) سورة الانفال - الآية ٢٤ .

وتكاد تجمع كلمات المفسرين على أن المراد بالضعف هنا عدم الصبر عن الشهوات ، ويضيف بعضهم عدم الصبر على مشاق الطاعات ، وقليل من رأى أن الضعف هنا عام .

عن سعيد بن المسيب : (ما أيسر الشيطان من بني آدم قط إلا أتاهم من قبل النساء ، فقد أتى على ثمانون سنة ، وذهبت إحدى عيني ، وأنا أعشو بالأخرى ، وإن أخوف ما أخاف على فتنة النساء) .

ذكر ذلك الرمخشري عند تفسيره لهذه الآية بعد أن فسر هو ضعف الإنسان المراد فيها بأنه : (لا يصبر عن الشهوات ، وعلى مشاق الطاعات) .

وقال الفخر الرازي : (والمعنى أنه تعالى لضعف الإنسان خفف تكليفه ، ولم يثقل ، والأقرب أن يحمل الضعف في هذا الموضع لا على ضعف الخلقة ، بل يحمل على كثرة الدواعي إلى اتباع الشهوات واللذات ، فيصير ذلك كالوجه في أن يضعف عن احتمال خلافه) . ونقل عن القاضي عبد الجبار بأن التأثير في هذا الباب لضعف الداعية وقوتها ، لا لضعف البدن وقوته ، ووصف الرازي كلام القاضي بأنه (كلام حسن) .

وقال الخازن : (ضعيفاً . أى في قلة الصبر عن النساء ، فلا صبر له عنهن ، وقيل : إنه لضعفه يستميله هواه فهو ضعيف العزم عن قهر الهوى ، وقيل : هو ضعف في أصل الخلقة لأنه خلق من ماء مهين^(١)) .

وقال السيد رشيد رضا : (وخلق الإنسان ضعيفاً لا يقدر على

(١) ج ١ ص ٤١٣ .

وقال أبو بكر الطمستاني : من صحب الكتاب والسنة ،
وتغرب عن نفسه وعن الخلق ، وهاجر بقلبه إلى الله فهو الصادق
المصيب ^(١) .

ومن كلمات الجنيد - رحمه الله - : لو أقبل صادق على الله
ألف ألف سنة ، ثم أعرض عنه لحظة لكان مافاته أكثر مما ناله .
ومن كلام الفضيل بن عياض - رحمه الله - طوبى لمن
استوحش من الناس ، وأنس بربه ، وبكى على خطيئته .
بمراقبة الله سبحانه وتعالى ، وبدوام محاسبة النفس ، تحيا
الضمائر ، (وبتصحيح الضمائر تغتفر الكبائر) كما يقول السقطي -
رحمه الله - .

هذا . والقرآن الكريم يسمى هذا الرقيب على الإنسان :
(النفس اللوامة) وتقابلها في بيانه الحكيم (النفس الأمانة) .
وعلماء النفس يطلقون على الأولى : الرقيب أو الذات العليا ،
ويطلقون على الثانية : الذات الدنيا .
وقد حدثنا القرآن الكريم عن ضمائر استيقظت بعد أن غفلت ،
وبعد أن أسرف أصحابها على أنفسهم .

ففي أول قصة قتل رويت بدمه الأرض من نفس أحد ولدى
آدم الذي قتله أخوه ، ثم عجز عن دفنه يبعث الله غراباً يبحث في
الأرض ليريه كيف يوارى سواة أخيه ، وحين نظر إلى هذا الطائر
الاعجم يبحث لبكرم غراباً بمواراة جثته ندم ، وقال - كما أخبر
القرآن - : ﴿يا ويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري
سواة أخى فأصبح من النادمين﴾ ^(٢) .

(١) مدارج السالكين ج ٢ ص ٤٦٧ .

(٢) سورة المائدة - الآية ٣١ .

وتكاد تجمع كلمات المفسرين على أن المراد بالضعف هنا عدم الصبر عن الشهوات ، ويضيف بعضهم عدم الصبر على مشاق الطاعات ، وقليل من رأى أن الضعف هنا عام .

عن سعيد بن المسيب : (ما أيسر الشيطان من بني آدم قط إلا أتاهم من قبل النساء ، فقد أتى على ثمانون سنة ، وذهبت إحدى عيني ، وأنا أعشو بالأخرى ، وإن أخوف ما أخاف على فتنة النساء) .

ذكر ذلك الرمخشري عند تفسيره لهذه الآية بعد أن فسر هو ضعف الإنسان المراد فيها بأنه : (لا يصبر عن الشهوات ، وعلى مشاق الطاعات) .

وقال الفخر الرازي : (والمعنى أنه تعالى لضعف الإنسان خفف تكليفه ، ولم يثقل ، والأقرب أن يحمل الضعف في هذا الموضع لا على ضعف الخلقة ، بل يحمل على كثرة الدواعي إلى اتباع الشهوات واللذات ، فيصير ذلك كالوجه في أن يضعف عن احتمال خلافه) . ونقل عن القاضي عبد الجبار بأن التأثير في هذا الباب لضعف الداعية وقوتها ، لا لضعف البدن وقوته ، ووصف الرازي كلام القاضي بأنه (كلام حسن) .

وقال الخازن : (ضعيفاً . أى في قلة الصبر عن النساء ، فلا صبر له عنهن ، وقيل : إنه لضعفه يستميله هواه فهو ضعيف العزم عن قهر الهوى ، وقيل : هو ضعف في أصل الخلقة لأنه خلق من ماء مهين^(١)) .

وقال السيد رشيد رضا : (وخلق الإنسان ضعيفاً لا يقدر على

(١) ج ١ ص ٤١٣ .

فقد تخلف عن غزوة تبوك نفر منهم ، ثم لاموا أنفسهم على التخلف : ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ﴾^(١) ثم تاب الله عليهم .

وتروى كتب السيرة أن صحابياً يدعى أبا لبابة - رضى الله عنه - وقع في خطأ ثم ندم ندماً شديداً ، فربط نفسه في سارية من سواري المسجد - مسجد المدينة - وأقسم لا يفك نفسه ، ولا يذوق طعاماً ولا شرباً حتى يموت ، أو يتوب الله عليه ، فكث سبعة أيام حتى خثر مغشياً عليه ، ثم تاب الله عليه ، وأنزل قوله سبحانه : ﴿وَأَخْرَجُوا عَنْهُمْ أَهْلَهُمْ وَهُمْ مُتَعَفِّينَ﴾^(٢) ثم تاب الله عليهم .

وفي رواية أنهم كانوا جماعة أحدهم أبولبابة تخلفوا عن غزوة تبوك ، ثم ندموا فربطوا أنفسهم في سواري المسجد ، وظلوا كذلك حتى تاب الله عليهم .

ولا تزال في مسجد رسول الله - ﷺ - سارية تحمل اسم أبي لبابة ، تذكر الوافدين على هذا المسجد بذلك الصحابي الجليل الذي بلغ منه الندم على فعلته كل مبلغ فأنزل الله توبته من السماء في قرآن يُتلى .

وفي القرآن الكريم ذكر لمواقف أخرى تمثلت فيها يقظة الضمائر ، ولا شك أن في ذكر كل هذه القصص عبرة ، ودعوة للغافلين أن يكون لهم في هؤلاء أسوة حسنة .

(١) سورة التوبة - الآية ١١٨

(٢) سورة التوبة - الآية ١٠٢ .

وتكاد تجمع كلمات المفسرين على أن المراد بالضعف هنا عدم الصبر عن الشهوات ، ويضيف بعضهم عدم الصبر على مشاق الطاعات ، وقليل من رأى أن الضعف هنا عام .

عن سعيد بن المسيب : (ما أيسر الشيطان من بني آدم قط إلا أتاهم من قبل النساء ، فقد أتى على ثمانون سنة ، وذهبت إحدى عيني ، وأنا أعشو بالأخرى ، وإن أخوف ما أخاف على فتنة النساء) .

ذكر ذلك الرمخشري عند تفسيره لهذه الآية بعد أن فسر هو ضعف الإنسان المراد فيها بأنه : (لا يصبر عن الشهوات ، وعلى مشاق الطاعات) .

وقال الفخر الرازي : (والمعنى أنه تعالى لضعف الإنسان خفف تكليفه ، ولم يثقل ، والأقرب أن يحمل الضعف في هذا الموضع لا على ضعف الخلقة ، بل يحمل على كثرة الدواعي إلى اتباع الشهوات واللذات ، فيصير ذلك كالوجه في أن يضعف عن احتمال خلافه) . ونقل عن القاضي عبد الجبار بأن التأثير في هذا الباب لضعف الداعية وقوتها ، لا لضعف البدن وقوته ، ووصف الرازي كلام القاضي بأنه (كلام حسن) .

وقال الخازن : (ضعيفاً . أى في قلة الصبر عن النساء ، فلا صبر له عنهن ، وقيل : إنه لضعفه يستميله هواه فهو ضعيف العزم عن قهر الهوى ، وقيل : هو ضعف في أصل الخلقة لأنه خلق من ماء مهين^(١)) .

وقال السيد رشيد رضا : (وخلق الإنسان ضعيفاً لا يقدر على

(١) ج ١ ص ٤١٣ .

عواقبه السيئة خافية ، ويقترب الذنب وهو يعلم مغبة ارتكابه ، وما ذلك إلا لأنه فقد الإرادة القوية التي تغالب الشهوات ، وتكبح جماح النفس .

والأمر كذلك في فعل الخير « فالإنسان يعرف أنه خير ، وأن فعله يعود عليه بالنفع في دنياه وفي آخرته ، ولكنه حين يهيم به تجذبه جواذب من لؤم النفس ، ورداءة الطبع ، فلا يجد في نفسه القدرة على تحقيق ما هم بفعله .

لذلك عني القرآن بتقوية الإرادة عند الإنسان ، حتى إذا دعاه العقل وأرشده الضمير أقدم غير مستجيب لتزعزعات الشيطان ، ولا خاضع لأهواء النفس فالشيطان يعده الفقر ، ويأمره بالفحشاء ، والنفس - إذا لم تكن سوية - تُسَوِّل له التقصير فيما يجب عليه من فعل الخير ، فإذا عصاهما استجاب لداعى الضمير ، وأنفذ ما تدفعه إليه الإرادة الواعية .

وقد صدق البوصيرى في قوله :

وخالف النفس والشيطان واعصهما

وإن هما محضاك النصح فاتهم

ولا تطع منهما خصماً ولا حكماً

فأنت تعرف كيد الخصم والحكم

والنفس كالطفل إن تهمله شب على

حب الرضاع وإن تطفمه ينقطع

والقرآن الكريم يذكر أبناء آدم بالعداوة القديمة التي كانت بين الشيطان وأبيهم آدم ، ويدعوهم إلى أن يأخذوا العبرة مما كان من أثر هذه العداوة ، فقد أخرج الشيطان أبويهم من الجنة ، وكان سبباً في هبوطهما إلى هذه الأرض التي لقيتا فيها هما وابناؤهما من ألوان الشقاء

وتكاد تجمع كلمات المفسرين على أن المراد بالضعف هنا عدم الصبر عن الشهوات ، ويضيف بعضهم عدم الصبر على مشاق الطاعات ، وقليل من رأى أن الضعف هنا عام .

عن سعيد بن المسيب : (ما أيسر الشيطان من بني آدم قط إلا أتاهم من قبل النساء ، فقد أتى على ثمانون سنة ، وذهبت إحدى عيني ، وأنا أعشو بالأخرى ، وإن أخوف ما أخاف على فتنة النساء) .

ذكر ذلك الرمخشي عند تفسيره لهذه الآية بعد أن فسر هو ضعف الإنسان المراد فيها بأنه : (لا يصبر عن الشهوات ، وعلى مشاق الطاعات) .

وقال الفخر الرازي : (والمعنى أنه تعالى لضعف الإنسان خفف تكليفه ، ولم يثقل ، والأقرب أن يحمل الضعف في هذا الموضع لا على ضعف الخلقة ، بل يحمل على كثرة الدواعي إلى اتباع الشهوات واللذات ، فيصير ذلك كالوجه في أن يضعف عن احتمال خلافه) . ونقل عن القاضي عبد الجبار بأن التأثير في هذا الباب لضعف الداعية وقوتها ، لا لضعف البدن وقوته ، ووصف الرازي كلام القاضي بأنه (كلام حسن) .

وقال الخازن : (ضعيفاً . أى في قلة الصبر عن النساء ، فلا صبر له عنهن ، وقيل : إنه لضعفه يستميله هواه فهو ضعيف العزم عن قهر الهوى ، وقيل : هو ضعف في أصل الخلقة لأنه خلق من ماء مهين^(١)) .

وقال السيد رشيد رضا : (وخلق الإنسان ضعيفاً لا يقدر على

(١) ج ١ ص ٤١٣ .

الآيتين قال : (وأعلم أن من علم أن له عدوا لا يهرب منه ، وحزم بذلك فإنه يقف عنده ، ويصبر على قتاله ، والصبر معه الظفر ، فكذلك الشيطان ، لا يقدر الإنسان أن يهرب منه ، فإنه معه ، ولا يزال يتبعه ، إلا أن يقف له ويهزمه ، فهزيمة الشيطان بعزيمة الإنسان ، فالطريق الثبات على الجادة ، وإلا تكال على العباد).
فهى - إذا - معركة بين عدوين ، وليس من طبيعة الأشياء أن يستسلم المقاتل لعدوه وفيه غريزة الدفاع عن النفس ، وقد بينت له عاقبة الاستسلام أن يكون من أصحاب السعير ، والقتال عدته العزيمة الصادقة ، والارادة الصلبة .

وإذا كان القرآن فى الآية الأولى نادانا بوصف البنية للأب الأول وفى الآية الثانية نادانا بوصف الإنسانية فقد نادانا بوصف الإيمان ، ووجه إلينا أوامر من شأنها أن تشدّ العزائم ، وتقوى الإرادات ، وتعودنا الصبر والصدق فى كل ما نعالج من شئون الحياة .

يقول الله عزّ وجلّ : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمُ الْاُدْبَارَ . وَمَن يُولُوهُمُ يَوْمَئِذٍ دُبُرُهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحِيِّزًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَتِسْ الْمَصِيرُ﴾^(١)

فالله - سبحانه - يأمر المؤمنين بالثبات أمام العدو ، ويحذرهم من الفرار يوم الزحف ، فإن الفرار من كبائر الذنوب - كما جاء فى الحديث النبوى الشريف ، فهو - إذا - الثبات حتى النصر أو الموت ، ولا شىء يقوى إرادة الإنسان ، ويزيل الخوف والضعف

(١) سورة الأنفال - الآيتان ١٥ - ١٦ والمتحرّف : المتحاز إلى مكان يراه أخرج إلى القتال فيه . المتحيّز : الضائر إلى جماعة من المقاتلين يرى أنهم فى حاجة إليه للنصر .

الفصل الثالث

تربية الإرادة

قد يعرف العقل ، ويستيقظ الضمير ، ولكن الهوى يتحكم ويغلب ، لأن النفس فقدت الإرادة الصارمة التي يستعين بها كل من العقل والضمير في رد صاحبها عن طريق الشر والغواية .
وقديماً قال أحد الفلاسفة : إن الإنسان لا يفعل الشر وهو عالم به ، يرى أن العلم بالشر ومضاره ، وسوء عواقبه يمنعه من الوقوع فيه .

ولكن القرآن ، وواقع النفس البشرية يؤكدان أن هذا غير صحيح ، وأن الإنسان قد ينغمس في الشر وهو على يقين من أنه شر ، وعلى بصيرة تامة بما ينجم عن اقترافه من أضرار ، يقول القرآن الكريم : ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ آلِهَةً هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ﴾^(١) ، وقد وصف الله تعالى قوماً في القرآن بأنهم يقولون على الله الكذب وهم يعلمون ، وبأنهم يكتُمون الحق وهم يعلمون . فليس صحيحاً أن الإنسان لا يرتكب الخطيئة إلا حين يكون جاهلاً بها وما غناء العلم إذا لم يكن معه دين يحجز عن الشر ، أو وجدان ينفر من الخطيئة ؟ .

ونحن نعرف من أنفسنا ، ومن غيرنا ممن يتاح لنا أن نطلع على خفايا نفوسهم أن الإنسان يقدم على الشر وهو لا تحق عليه من

(١) سورة الجاثية - الآية ٢٣ .

ذلك لهم تارة بأنهم (الأعلون) = وتارة بأنهم يرجون من الله ما لا يرجو أعداؤهم ﴿ولا تنهوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين﴾^(١) . ﴿ولا تنهوا في ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون﴾^(٢) . ﴿فلا تنهوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم﴾^(٣) .

وهكذا يرفع القرآن من معنويات المسلمين ، ويقوى عزائمهم بهذه النواهي وبغيرها .

وإذا قويت الإرادة على مواجهة الصعاب ، وخوض غمرات القتال أصبحت صفة لازمة لصاحبها كلما وجد في نفسه حاجة إليها .

وهكذا يرشد القرآن إلى بناء الذات الإنسانية المثلى ، ويحض على بنائها ، ويحذر من مغبة التهاون في هذا البناء ، فهو يشرع لها ما يحفظ لها كل ما تحتاجه حياتها ، ثم يبين لها طريق الخير والشر ، ثم يوقظ فيها الضمير الخير الواعي ، ويبني الإرادة القوية الحازمة . فإذا تمت للإنسان كل هذه المقومات فهو الإنسان السوي الذي يريده الإسلام = بل الذي يريده كل باحث عن المثل الأعلى في هذا الجنس الذي فضله الله بالعقل ، وميزه بالوجدان . بل هو الإنسان الذي كان يبحث عنه الفيلسوف اليوناني (ديوجين) وقد أمسك بيده مصباحاً يطوف به الطرقات في (أثينا) ،

(١) آل عمران ١٣٩ .

(٢) النساء ١٠٤ .

(٣) محمد ٣٥ - ومعنى (لا يتركم أعمالكم) لا ينقصكم من أعمالكم شيئاً ، بل يوفى جزاءها لكم .

والبلاء والمهموم ما لقوا ، ولا زالوا في كل يوم يلقي الخلف كما لقي السلف : ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ﴾ (١).

فالقرآن لم ينادهم بأيها الناس ، ولا بآيها الذين آمنوا ، وإنما ناداهم بالنبوة لآدم ليدكرهم أنهم أبناء هذا النبي الذي قضى الله عليه هو وزوجه بالخروج من الجنة بسبب وسوسة الشيطان لهما ، فإذا كانوا مقدرين حق الأبوة وحق الأمومة ، وإذا كانوا خائفين أن يسلك بهم الشيطان المسلك الذي يبعدهم عن الجنة فليحذروا فتنة هذا الشيطان ، وليكن عندهم من الحزم والارادة وقوة الأنفس ما يواجهون به إغراء الشيطان الذي لم يقف له أبوهم النبي العظيم . ولا شك أن الولد كلما هم أن يطيع عدواً سبق أن غرر بأبويه تنبهت في نفسه معاني النبوة ، ومعاني الكيد والتغدير ، وخاف سوء المصير ، فيحزم أمره ، ويستعصم بإرادته ، ويخالف النفس والشيطان .

وكما ذكرهم القرآن بفعلة الشيطان هذه مع أبويهم أكد لهم أن الشيطان لهم عدو كما كان ، لم تحف عداوته ولم تضعف ، وأنه لا يريد بهم إلا ما يريده الخبيث الطاغية بأعدائه : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخَذُوهُ عَدُوًّا إِنَّهَا يَدْعُو حَزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ (٢).

وقد فسر الفخر الرازي (الغرور) هنا بالشيطان ، وبعد أن شرح

(١) سورة الأعراف - الآية ٢٧ .

(٢) سورة فاطر - الآيتان ٥ ، ٦ .

من نفسه أكثر من أن يستهين بالحياة في سبيل العقيدة .
وقد امتحن الله سبحانه وتعالى المؤمنين في مبدأ الدعوة بما هو
أشق وأقسى ، وبما يدل على أن نفوس المؤمنين - آنذاك - لم تكن
من لحم ودم ، وإنما كانت أرواحاً خالصة ، وإشراقات وأنوار ،
وعزائم وإرادات ، وصدقاً وصبراً .

امتحنهم بأن يثبت الواحد منهم للعشرة من الرجال ، ثم خفف
عنهم ، وألزمهم أن يثبت الواحد للرجلين ، وأياً ما كان فذلك ما لا
يقوى عليه إلا عزائم الرجال بصدق الإيمان ، وقوة اليقين .

يقول تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضْ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ
مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مَائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا
مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ . الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ
أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مَائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ
مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفِينَ يَا ذَنُ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ ^(١) .
وقد نجح المسلمون في الحالتين فكانوا دائماً يقاتلون جيوشاً أكثر
منهم عدة وعدداً ويتصرون .

ومحدثنا التاريخ عن حروب النبي - ﷺ - وعن حروب
الخلفاء الراشدين من بعده ، وعن حروب العرب في الأندلس ،
وعن حروب التتار والصليبيين ، وغيرها ، ولكن كان ذلك حين
كان القرآن يملأ الصدور ، ويوجه القلوب ، ويشد العزائم التي
تستمد النصر من الله تعالى ، ثم من صدق عزائمهم ، وخالص
إيمانهم .

وقد نهى القرآن الكريم المؤمنين عن الضعف والوهن ، وعُلِّلَ

(١) سورة الأنفال - الآيتان ٦٥ ، ٦٦ .

والأخلاق الفاضلة التي حث القرآن على التحلى بها كثيرة ،
وهي الصفات التي كان يتحلى بها النبي محمد - عليه الصلاة
والسلام ، فقد سئلت السيدة عائشة - رضى الله عنها - عن خلق
النبي فقالت : كان خلقه القرآن ^(١) .

وأخلاق القرآن تهدف إلى تحقيق إنسانية فاضلة ، ومجتمعات
صالحة ، وحياة كريمة يعيش فيها بنو البشر أخوة متحابين متعاونين ،
تسود بينهم المحبة ، وبحكم صلاتهم الإخاء ، وتظلل جماعاتهم
المساواة ، ويرتفع من بينهم الظلم والطغيان ، والزور والبهتان ،
ويعود غيئهم على فقيرهم بالعطف والخير والمعاونة ، ويحمي قويمهم
ضعيفهم من تسلط الأهواء ، وتحكم الاستبداد ، وطغيان
الأحقاد ، ويحلم حلماءهم على سفهائهم ويعاملونهم بالرفق والأناة
والصبر ، ما لم يفض السفه إلى فساد أو ظلم فحينئذ ينبغى أن
يضرب الجميع على أيديهم ، ويردوهم طائعين أو كارهين إلى شريعة
الحق والعدل .

ولقد يطول بنا الحديث ، ويمتدُّ نفس القول لو حاولنا إحصاء
هذه الأخلاق الفاضلة ، ووقفنا عند كل رذيلة من الرذائل الفردية
والاجتماعية ، فنكتفى بأن نلم بأهمها الفضائل ، وأصول الرذائل كما
تحدث عنها القرآن .

يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي
الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ
تَذَكَّرُونَ ﴾ ^(٢) .

قال ابن مسعود - رضى الله عنه - عن هذه الآية : هي أجمع

(١) أخرجه مسلم والنسائي وأبو داود والدارمي .

(٢) سورة النحل - الآية ٩٠ .

ولما سئل عمّ تبحث ، وأنت تطوف بمصباحك في رابعة النهار؟
فقال : أبحث عن الإنسان فلا أجده !

هو يبحث عن الإنسان ، وقد امتلأت الطرقات بالناس ، فهم
عنده عدم ، هو يريد إنساناً خاصاً ، ذلك الذي أرشد إلى بنائه
القرآن الكريم .

وهو الإنسان الذي افتقده الشاعر العربي فلم يجده فقال :
ما أكثر الناس لا بل ما أقلهم

الله يعلم إنى لم أقل قَدا

إنى لأفتح عيني حين أفتحها

على كثير ولكن لا أرى أحداً

أمر الله - سبحانه - بالعدل في الحكم بين المتخاصمين ، وفي الشهادة التي تعين على حكم عادل ، قولاً وعملاً ، قولاً بأن يحكم القاضي ، أو من يرتضيه الخصوم حكماً بينهم وبأن يؤدي من يعرف الحق شهادته دون تزيف أو تحوير أو تزوير ، وعملاً بأن يقسم بين أصحاب الحقوق بالسوية .

وقد شدد القرآن في الأمر بالعدل : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَزِدُوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ (١) .

فهو أمر صريح واضح بأداء الأمانة ، والحكم بالعدل ، وهو صادر من الله تعالى الذي ينبغي أن يطاع أمره ، وينفذ حكمه ، وقد جاء هذا الأمر في أسلوب مؤكد ، وبصيغة فعل الاستقبال التي تدل على أن هذا الأمر متجدد مع ما لهاتين الفضيلتين - أداء الأمانة ، والحكم بالعدل - من مزايا لا تحصى في استقرار الحياة الإنسانية الفاضلة ، ولذلك أثنى الله عليهما بأنهما من أعظم ما وعظ الله به عباده : ﴿نِعْمَا يَعِظُكُمْ بِهِ﴾ .

ثم ختمت الآية بما يجب في امتثال هذين الأمرين ، ويبغض التهاون في تنفيذهما ، فالله - سبحانه - وهو خالقهم ورازقهم ، والعليم بما يصلح شئونهم ، ويسعد حياتهم - الله سميع بصير ، خبير بكل ما يقولون وما يفعلون ، بل بما يتحدثون به أنفسهم . وقد أمر - سبحانه - بإنفاذ العدل مهما اعترضه من موانع ، فالحق لا بد أن يقال ، والحكم العادل لا بد أن يصدر ، ولا ينبغي أن تكون العداوة أو البغضاء عائقاً بين الحاكم والعدل ، كما لا

(١) النساء - الآية ٥٨ .

الباب الخامس

الفصل الأول

التحلى بالفضائل

فحين يستيقظ الضمير ، وتقوى الإرادة ، ويرشد العقل ، ويغلب الهوى وتضمحل النزعات الشريرة لا يكون هناك عائق بين الإنسان ، وبين التحلى بأنبل الصفات وأعلاها ، وتنسأ أمام السالك طرق الغواية والفساد والرديلة .

وقبل أن أشير إلى أهم الفضائل التى أكد القرآن الكريم عليها أحب أن أؤكد أن كل ما أمر الله به ينسجم مع الفطرة السليمة ، وتقره العقول المنصفة ، وأن كل ما نهى عنه تأباه الفطر التى فطر الله الناس عليها ، وتنكره العقول التى لا تتوزعها الأهواء ومن هنا قيل : الإسلام دين الفطرة ، والإسلام دين العقل .

ولقد قيل لبعض الأعراب حين أسلم لما عرف دعوة محمد - ﷺ - عن أى شىء أسلمت ؟ وما رأيت منه مما ذلك على أنه رسول الله ؟ . فقال : ما أمر بشىء فقال العقل : ليته نهى عنه ، ولا نهى عن شىء فقال العقل : ليته أمر به ، ولا أحل شيئاً فقال العقل : ليته حرمه ، ولا حرم شيئاً فقال العقل : ليته أباحه ^(١) .

(١) ابن قيم الجوزية - مدارج السالكين ج ١ ص ٢٣٥ .

والبغض فكثيراً ما يحملان الحاكم والشاهد على مجانبية الصواب ، وإنكار الحق ، ونهت الآيتان أن يكون شيء من ذلك مسوغاً لقول الزور ، أو الحكم بالباطل ، أولى الألسنة عن الحق ، أو الاعراض عما أمر الله به .

ثم نلاحظ أن الآيتين ختمتا بفاصلة واحدة فيها وصف الله تعالى بأنه «خبير» ، والخبير هو العليم بدقائق الأمور ، فهو مطلع على أخفى خفايا النفوس ، فلا ينبغي أن نكتم الشهادة ، أو تحرف ، أو تحمل قوة باطنة من حب أو بغض على التجهم للحق ، والتنكر للعدالة . وإذا تتبعنا آيات القرآن في المواطن التي يتحتم فيها العدل نراه لم يهمل الأمر به حين يحتاج المتعاملان إلى أن يكتبوا وثيقة بالدين الذي بينهما « فأمر الكاتب الذي يكتب لهما أن يلتزم العدل ، وأمر المدين أن يعمل هو على الكاتب » وأن يتق الله ربه ، فلا ينقص شيئاً من الحق « ولا يحرف في إملاته ، ولا يزيد ما ليس له :

﴿يَأْمُرُ الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَمْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ، وَلْيَكْتُب بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْب كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلِلَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلَيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسَ مِنْهُ شَيْئاً﴾^(١) .

وتشير الآية الكريمة إلى أن كاتب الدين ينبغي أن يكون على علم بالشرعة ، وعلى علم بنظام المداينات ، ولا يمتنع أن يكتب : (كما علمه الله) فإذا لم يأنس من نفسه القدرة على أن يصدر عن علم ، ويكتب بالعدل فليطلب السلامة ، ويمتنع عن الكتابة . ولنلاحظ هنا الجمع بين وصف الألوهية ، ووصف الربوبية

(١) سورة البقرة - الآية ٢٨٢ .

آية في القرآن للخير والشر ، ولو لم يكن فيه غير هذه الآية الكريمة لكفت في كونه تبياناً لكل شيء وهدى .

ولما علم أبوطالب عم النبي بنزول هذه الآية جاء لمجتمع قريش وقال : يا معشر قريش اتبعوا ابن أخي ترشدوا ، ولئن كان صادقاً أو كان كاذباً فإنه ما يأمركم إلا بمكارم الأخلاق .

ويروى أن النبي - ﷺ - حين عرض نفسه على قوم من قبيلة شيان ، ودعاهم إلى أن ينصروه قال له سيد من ساداتهم : إلام تدعوننا يا أخا قريش ؟ فتلا رسول الله عليهم هذه الآية ، فقال الرجل : دعوت - والله - إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال ، ولقد أفك قوم كذبوك ، وظاهروا عليك ^(١) .

العدل

هذه الصفة من أعم الصفات وأشملها ، فعناها الاعتدال في كل شيء ، وهي تتضمن جميع أصول الفضائل ؛ لأن الفضيلة وسط بين رذيلتين : فالشجاعة - مثلاً - وسط بين الجبن والتهور ، وتناول الطيبات مما أحل الله وسط بين الحرمان الذي يفرضه بعض المغالين على أنفسهم كي يهدبوها - زعموا - بالتعذيب ، وبين الإسراف ، وتناول ما يحل ... وهكذا .

وقد عرضت في مناسبة سبقت للعدل بمعناه العام ، وذكرت أنه ميزان الله في الأرض .

وهنا أبين نظر القرآن الكريم إليه بمعناه الخاص ، وهو المعنى المشهور عند جمهرة الناطقين بالعربية .

(١) أفك : كذب ، ومصدره الأفك . وظاهروا عليه : عاونوا عليه أعداءه .

قال الفيروز أبادى : (ويكون الإحسان فى الوقت ، وهو ألا يفارق حال الشهود ، وهذا إنما يقدر عليها أهل التمكن الذين قطعوا المسافات التى بين النفس والقلب ، والمسافات التى بين القلب وبين الله تعالى ، وأن تعلق همتك بالحق وحده ، ولا تعلق بأحد غيره ، فإن ذلك شرك فى طريق الصادقين ، وأن تجعل هجرتك إلى الحق سرمدًا ، والله على كل قلب هجرتان فرضًا لازمًا : هجرة إلى الله بالتوحيد والإخلاص والتوبة والرجاء والعبودية ، وهجرة إلى رسوله بالتسليم له والتفويض والانقياد لحكمه ، وتلقى أحكام الظاهر والباطن من مشكاته ، ومن لم يكن لقلبه هاتان الهجرتان فليبحثْ على رأسه التراب ، وليراجع الإيمان من أصله^(١) .

ومن معانى الإحسان الشائعة أن تحسن إلى أخيك بكلمة طيبة أو صلة نافعة ، أو صفح عن زلة ، وتغاضٍ عن هفوة ، أو إرشاد إلى خير ، أو تحذير من شر ، وهذا داخل فى قوله - ﷺ - : «إن الله كتب الإحسان على كل شيء» .

ومن الإحسان بهذا المعنى ، وقد أشرت آنفًا إليه :

العفو

كانت الشرائع المعروفة قبل الإسلام نوعين :
 شريعة توجب مقابلة السيئة بالسيئة ، وتحتم القصاص من القاتل ، وشريعة تحجب فى العفو عن المسىء ، وتقول : من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر .

٢

(١) بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز . ص ٤٦٧ ج ٢ .

آية في القرآن للخير والشر ، ولو لم يكن فيه غير هذه الآية الكريمة لكفت في كونه تبياناً لكل شيء وهدى .

ولما علم أبوطالب عم النبي بنزول هذه الآية جاء لمجتمع قريش وقال : يا معشر قريش اتبعوا ابن أخي ترشدوا ، ولئن كان صادقاً أو كان كاذباً فإنه ما يأمركم إلا بمكارم الأخلاق .

ويروى أن النبي - ﷺ - حين عرض نفسه على قوم من قبيلة شيان ، ودعاهم إلى أن ينصروه قال له سيد من ساداتهم : إلام تدعوننا يا أخا قريش ؟ فتلا رسول الله عليهم هذه الآية ، فقال الرجل : دعوت - والله - إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال ، ولقد أفك قوم كذبوك ، وظاهروا عليك ^(١) .

العدل

هذه الصفة من أعم الصفات وأشملها ، فعناها الاعتدال في كل شيء ، وهي تتضمن جميع أصول الفضائل ؛ لأن الفضيلة وسط بين رذيلتين : فالشجاعة - مثلاً - وسط بين الجبن والتهور ، وتناول الطيبات مما أحل الله وسط بين الحرمان الذي يفرضه بعض المغالين على أنفسهم كي يهدبوها - زعموا - بالتعذيب ، وبين الإسراف ، وتناول ما يحل ... وهكذا .

وقد عرضت في مناسبة سبقت للعدل بمعناه العام ، وذكرت أنه ميزان الله في الأرض .

وهنا أبين نظر القرآن الكريم إليه بمعناه الخاص ، وهو المعنى المشهور عند جمهرة الناطقين بالعربية .

(١) أفك : كذب ، ومصدره الأفك . وظاهروا عليه : عاونوا عليه أعداءه .

نقر الروح في بدن لم تدفع عنه الأدواء^(١) .
ولكن الإسلام مع ذلك حَبَّب في العفو ، ودعا إليه ، إذا لم
يؤد إلى ضرر بالجماعة الإسلامية ، ففي كل آية ورد فيها إباحة رد
العدوان بالعدوان ذُكر الترغيب في العفو ، فإن أخذ الحق ، وإن
كان فيه مصلحة الفرد ، ومصلحة الجماعة أحياناً ربما كان أقل نفعاً
من العفو .

وطبيعي أن العفو لا يكون إلا مع القدرة على رد الاعتداء ،
ومع تمكن المظلوم من الأخذ بتلايب الظالم ، ولذلك شرع
الإسلام القصاص ، وجعل لولى الدم سلطاناً ثم حَسَّن له العفو .
قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقَصَاصُ فِي
الْقَتْلِ الْحَرْبُ بِالْحَرْبِ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَى بِالْأَنْثَى فَمَنْ عُقِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ
شَيْءٌ فَاتَّبِعْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ
وَرَحْمَةٌ فَمَنْ اعْتَدَى بِكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ. وَلَكُمْ فِي الْقَصَاصِ
حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾^(٢) .

كتب عليكم القصاص أى فرض ووجب فلا مفر منه إذا أصر
عليه ولى الدم ، وفي هذا القصاص مصلحة عظيمة للمجتمع
البشرى ؛ لأن القاتل إذا أيقن أنه سيقتل قصاصاً أطال التفكير قبل
أن يقدم على جريمته ، فحفظ حياة الإنسان الذى كان معتزماً أن
يقتله ، وحفظ حياته هو لأنه كان سيقتل قصاصاً ، وربما لو حدث
القتل لم يقتصر أخذ الثأر على القاتل والمقتول ، بل يتعداهما إلى
عشائرها ، وقد تبقى العداوة بين القبيلين الزمن الطويل .

(١) أسرار البلاغة - ص ٢٤٤ ، ٢٤٥ - طبعة هـ ريتز .

(٢) سورة البقرة الآيتان ١٧٨ ، ١٧٩ .

آية في القرآن للخير والشر ، ولو لم يكن فيه غير هذه الآية الكريمة لكفت في كونه تبياناً لكل شيء وهدى .

ولما علم أبوطالب عم النبي بنزول هذه الآية جاء لمجتمع قريش وقال : يا معشر قريش اتبعوا ابن أخي ترشدوا ، ولئن كان صادقاً أو كان كاذباً فإنه ما يأمركم إلا بمكارم الأخلاق .

ويروى أن النبي - ﷺ - حين عرض نفسه على قوم من قبيلة شيان ، ودعاهم إلى أن ينصروه قال له سيد من ساداتهم : إلام تدعوننا يا أخا قريش ؟ فتلا رسول الله عليهم هذه الآية ، فقال الرجل : دعوت - والله - إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال ، ولقد أفك قوم كذبوك ، وظاهروا عليك ^(١) .

العدل

هذه الصفة من أعم الصفات وأشملها ، فعناها الاعتدال في كل شيء ، وهي تتضمن جميع أصول الفضائل ؛ لأن الفضيلة وسط بين رذيلتين : فالشجاعة - مثلاً - وسط بين الجبن والتهور ، وتناول الطيبات مما أحل الله وسط بين الحرمان الذي يفرضه بعض المغالين على أنفسهم كي يهدبوها - زعموا - بالتعذيب ، وبين الإسراف ، وتناول ما يحل ... وهكذا .

وقد عرضت في مناسبة سبقت للعدل بمعناه العام ، وذكرت أنه ميزان الله في الأرض .

وهنا أبين نظر القرآن الكريم إليه بمعناه الخاص ، وهو المعنى المشهور عند جمهرة الناطقين بالعربية .

(١) أفك : كذب ، ومصدره الأفك . وظاهروا عليه : عاونوا عليه أعداءه .

الناس في أمن .

تلك شريعة الإسلام ، والمنصفون ممن تعمقوا في دراسة أحوال المجتمعات الإنسانية ، ومعرفة عاداتها وتقاليدها ، وسبروا أعماق نفوسها لا يسعهم إلا أن يعترفوا عن يقين واقتناع بأن ما ورد في هذه الآية الكريمة هو العلاج الناجح لأدواء النفوس ، والاصلاح الحق للمجتمع الإنساني ، والطريق الوحيد للسلام والوثام والأمن . وقد أباح الإسلام أن تقابل أى سيئة بسيئة مثلها ، أى بجزاء عليها ، قال تعالى في وصف المؤمنين : ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ. وَجِزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾^(١) .

فمن صفات المؤمنين الكاملى الايمان ألا يستكينوا للبغى ، أو يخضعوا للظلم ، أو يرضوا بالذل ، بل ينتصرون لأنفسهم ، ولأمتهم ممن بغى عليهم .

وقد أباح لهم القرآن الكريم أن يقابلوا السيئة بجزائها ، فאלله سبحانه لا يجب الظلم ، ولا يرضى به لعباده المؤمنين الذين أثبت لهم العزة في قوله سبحانه : ﴿وَاللَّهُ الْعِزَّةُ لِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾^(٢) . ولكن في الآية الكريمة ما يحجب في العفو ، ويرغب فيه ، ويدعو إليه :

أولاً : تسمية جزاء السيئة سيئة ، وقد علل المفسرون ذلك ببعض العلل ، ولكن في ذلك إشارة إلى أن الجزاء مع أنه من حق من أسىء إليه أشبه بأن يكون سيئة مبتدأة .

(١) سورة الشورى - الآية ٣٩ .

(٢) سورة المناقون - الآية ٨ .

ولما كان الإسلام دين الفطرة ، وكانت غريزة حب الانتقام والدفاع عن النفس متأصلة في الطبيعة البشرية ، ولما كانت مصلحة الفرد والجماعة في أن يهيا لهذه الغريزة مجالها ، ولا سيما عندما يتسلط على الأمة جبار ، أو يعلو فيها صوت المفسدين في الأرض جاء الإسلام بإعطاء المظلوم حق الانتصاف من الظالم ، فأوجب على جماعة المسلمين أن يقوم فيهم من يأخذ لولى المقتول بحقه من القاتل ، وأباح للمعتدى عليه أن يأخذ بحقه من المعتدى .

قال إمام البلاغين الشيخ عبدالقاهر الجرجاني ، وهو يعلق على بيت المتنبي :

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى

حتى يراق على جوانبه الدم

(معنى معقول ، لم يزل العقلاء يقضون بصحته ، ويرى العارفون بالسياسة الأخذ بسنته « وبه جاءت أوامر الله سبحانه ، وعليه جرت الأحكام الشرعية ، والسنن النبوية ، وبه استقام لأهل الدين دينهم ، وانتفى عنهم أذى من يفتنهم ويضيرهم ، إذ كان موضوع الجلبة على أن لا تخلو الدنيا من الطغاة الماردين ، والغواة المعاندين « الذين لا يعون الحكمة فتردعهم ، ولا يتصورون الرشد فيكفهم النصيح ويمنعهم ، ولا يحسون بنقائص الغنى والضلال ، وما في الجور والظلم من الضعة والخيال ، فيجدوا لذلك مساً لم يحبسهم على الأمر ، ويقف بهم عند الزجر ، بل كانوا كالبهاائم والسباع لا يوجعهم إلا ما يخرق الأبدان من حد الحديد ، وسطو البأس الشديد ، فلو لم تطيع لأمثالهم السيوف ، ولم تطلق فيهم الختوف ، لما استقام دين ولا دنيا ، ولا نال أهل الشرف مانالوه من الرتبة العليا ، فلا يطيب الشرب من منهل لم تنف عنه الأقذاء ، ولا

يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب
اليم. ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور (١).

فلا جناح على من يتنصر لنفسه من ظلمه ، ولا تريب على من
يأخذ لنفسه أو لجماعته حقها من الباغي عليها ، بل تفيد الآيات
بمجموعها أن على المسلمين أن يقاتلوا أعداءهم إذا بغوا عليهم ،
وأن يقابلوا قوة الظالم بقوتهم حتى يردوه عن ظلمه ، وحتى يقلموا
أظفاره فلا يفكر في ظلمهم بعد ذلك .

ولكننا نلاحظ أن الآيات عادت فحييت في العفو ، وذكرت
أن الصبر والمغفرة من عزم الأمور .

والآيات القرآنية في هذا المعنى كثيرة ، وخلاصة ما يدل عليه
مجموعها أن ردّ الظلم حق لكل مسلم ، وأن قتال المقاتل مشروع ،
بل هو من صفات المؤمنين الصادقين ، وأنه ليس من حق الفرد أن
يتهاون في حق الجماعة المسلمة ، بل عليه أن يرد عنها ، وليس له أن
يعفو عن يسيء إليها .

فإذا كان الأمر يتعلق بالفرد في خاصة نفسه ، وكان على أن
يتنصف قادراً ، فإن من كرم الأخلاق - حينئذ - أن يعفو
ويصفح ، إذا كان العفو والصفح يردّان الظالم عن غيه ، وإنما
يصلح العفو أصحاب النفوس الكريمة ، وذوى الحياء والفضل .
وكما قال المتنبي :

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته

وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا

٤

(١) سورة الشورى الآيات ٤١ - ٤٣ .

هذا . وقد أخذ للمقتول حقه ، فلو أن الإسلام لم يفرض القصاص ، وأشفق على القاتل - كما يهرف بذلك بعض قصار النظر - لكانت العداوة أشد ، ونشبت نيران الحقد والبغضاء بين الفريقين ، ولظل لهيبها يأكل الأخضر واليابس ، ويورث الأبناء والأحفاد عداوات الآباء والأجداد ... والأمثلة عندنا لا تكاد تحصى حين تعجز يد القضاء عن الوصول إلى القاتل .

فإذا طابت نفس ولى الدم - واحداً أو أكثر - بالتجاوز عن القصاص ، ورضى عن سماحة نفس بأخذ الدية ، أو بالعفو عن القاتل فإن في الآية الكريمة ما يبارك هذا الموقف ، ويرغب فيه ، وفي الآية ما يلزم من يعفو أن يلتزم هذا العفو بالمعروف ويلزم المعفو عنه أن يؤدي الدية دون تأخير أو نقصان .

ومن الدقائق في الآية أنها عبرت عن ولى الدم بأنه أخ القاتل : ﴿لَنْ عَنَى لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ . وهذا مما يعطف القلوب بعضها على بعض ، فهو أخ وإن ارتكب أفدح الجرائم ، ثم التعبير بكلمة (شئ) فيه لطيفة أخرى نبه إليها العلماء ، وذلك أن أى قدر من العفو حتى لو كان من واحد ، وأولياء الدم جماعة ، يمنع القصاص .

وفي الآية لطيفة ثالثة في قوله سبحانه : ﴿ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ وقد يتبادر إلى الأذهان أن التخفيف والرحمة للقاتل فقط ، ولكن المتأمل في أحوال المجتمعات يدرك أن التخفيف والرحمة للقاتل ولأولياء القتل ، ولآخرين ، ذلك أن ولى الدم إذا أصر على القصاص بقيت العداوة ، وتشتد وتقوى كما لو لم يمكن من القصاص ، أما حين يرضى بأخذ الدية ، أو تسمو نفسه فيصفو ، فإن العداوة تبقى إلى حين ، ثم تصفو النفوس ، ويعيش

كما خاب قارون ، وخسىء ، وخسف به ويداره الأرض حين غفل عن الحقيقة الكبرى « وقيل له - وقد أعطاه الله من الكنوز ما يفوت الحصر - قيل له - كما حكى القرآن الكريم : ﴿وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك﴾^(١) فقد كان عليه أن يشكر نعمة الله عليه ، وأن يعترف موقناً بأن هذا المال الذى فى يده آتاه الله إياه ، وأن الله - سبحانه - أحسن إليه بإعطائه هذا المال الكثير ، ولكنه تجبر وتعظم ، وعظم عليه أن يعترف لربه بالإنعام عليه « وأن يتبع ذلك بالإنفاق منه على الفقراء ابتغاء مرضاة الله « وابتغاء الدار الآخرة ، فكان موقفه - كما حكى القرآن - : ﴿قال إنما أوفيته على علم عندى﴾ ، وكانت نهايته كما جاء فى القرآن الكريم : ﴿فخسفنا به ويداره الأرض لما كان له من فتن ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين﴾ .

والإحسان إلى ذوى القرى أحد أنواع هذا الإحسان ، ولكن القرآن خصهم بالذكر لبيان أنهم أحق بالإحسان من غيرهم ؛ فإن الإحسان إليهم صلة الرحم ، وهى مما وصى القرآن . وشدد فى الوصية به .

ومما يؤكد أمر العناية بذوى القرى أن الله سبحانه جعله تالياً للأمر بعبادته وللأمر بالإحسان إلى الوالدين ، قال تعالى : ﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذى القرى﴾^(٢) .

وكذلك سماه الله حقاً يجب الوفاء به وأداؤه : ﴿وأت ذى القرى

(١) وردت قصة قارون فى آخر سورة القصص الآية ٧٦ - ٨٢

(٢) سورة النساء - من الآية ٣٦ .

ثانياً : تقييد الجزاء بالمثلية ، واعتبار ما زاد على المثلية ظلماً إذا لاحظنا أنه يمكن أن يدخل الزائد على المثل في قوله سبحانه : ﴿إنه لا يحب الظالمين﴾ .

ثالثاً : قوله سبحانه : ﴿ولمن عفا وأصلح﴾ حيث الإشارة إلى ثمة العفو ، وهى الصلح بين المسيء والمساء إليه .

رابعاً : قوله تعالى : ﴿فأجره على الله﴾ حيث ذكر الأجر مبهماً ، وهذا يدل على أنه أجر عظيم ، وحيث جعله الله عز وجل (عليه) ، والحرف (على) يفيد في لغة البشر الالتزام ، ولكن معناه في جانب الله تعالى أنه وعد لا يتخلف .

خامساً : نقي الحب هنا - والظلم يشمل من يتدبىء بالسيئة ، ومن يزيد في جزائها عن المثل - من أقسى ما يواجه به المسلم الحق ، وهل هناك أقسى من أن يشعر المسلم بأن الله خالقه ورازقه لا يحبه ؟ .

هذا كله إذا كان العفو عن قدرة لأنه بغير القدرة لا يسمى عفواً ، وإذا كانت له نتائج طيبة في الإصلاح بين الناس ، وفي القضاء على الأحقاد والإحزن ، أما إذا كان المسيء لثيماً لا يزيده العفو إلا تمادياً في الإساءة ، وإمعاناً في اللؤم ، واستمراراً في الغي والظلم ، وعلى حد قوله المتنبي : (وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا) فإن العفو - حينئذ - يكون مضرراً بالجماعة الإسلامية ، لأنه يمكن لسفهاثهم النيل من أشرافهم ، ولذوى الطيش منهم الإضرار بجماعتهم ، ولذلك عادت الآيات القرآنية في هذا الموضع إلى تذكير المؤمنين بأن لهم أن يتصبروا لأنفسهم إذا استمر السفهاء يظلمونهم ، يقول تعالى - بعد الآيتين السابقتين - : ﴿ولمن انصبر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل . إنما السبيل على الذين

مال الغنى ، وللقريب حقاً على قريبه ، وقرر رسوله الكريم أنه ما آمن بالله من بات شبعان وجاره جائع .

وهل يمكن أن يسود الحب بين قوم تتحكم في أغنيائهم الأثرة ، ويحتقن في ربوعهم الايثار ؟ .

وإذا فقد الإنسان حب أقرب الناس إليه ، وحب عشيرته ، وحب من يخالطهم من الناس كيف يشعر بلذة الحياة ؟

لا أظن ذلك إلا إذا كان المال وحده يهب السعادة ، وراحة النفس للملكيه .

فالإسلام كما هو دين العدالة الاجتماعية « ودين الخير والبر والتعاون عليهما » هو - أيضاً - الدين الذى يحقق السعادة لمن يلتزمون تعاليمه . هذه السعادة التى أحقق الفلاسفة والشعراء فى البحث عنها ، وفى هداية البشرية إليها .

كما أن الكلمات الثلاث : العدل والإحسان وإيتاء ذى القربى تضمنت كل أصول الفضائل حتى يمكننا أن نرجع إليها كل مكارم الأخلاق ، كذلك الكلمات الثلاث : الفحشاء والمنكر والبغى تضمنت كل أصول الرذائل ، ويمكن أن نرجع إليها كل نقيصة فردية أو جماعية ، وكل خلق سيئ عاد بالشقاء والوبال على الإنسان فى خاصة نفسه ، وعلى الدول فى معالجتها لشئونها الداخلية ، وفى علاقاتها مع غيرها من الدول .

وهذا سر من أسرار بلاغة القرآن الذى يستعمل الكلمة فتعجز العقول وتبهر الأفهام ، ويمتد أفقها حتى يخيل للرائى أنه بعيد بعيد ، يقف أمامه مبهوراً ، ويحاول أن يمدّ يده كى يدركه ... ولكن ... هيات ... هيات .

ولنأخذ فى بيان هذه الكلمات الثلاث ، مع غاية الإيجاز :

آية في القرآن للخير والشر ، ولو لم يكن فيه غير هذه الآية الكريمة لكفت في كونه تبياناً لكل شيء وهدى .

ولما علم أبوطالب عم النبي بنزول هذه الآية جاء لمجتمع قريش وقال : يا معشر قريش اتبعوا ابن أخى ترشدوا ، ولئن كان صادقاً أو كان كاذباً فإنه ما يأمركم إلا بمكارم الأخلاق .

ويروى أن النبي - ﷺ - حين عرض نفسه على قوم من قبيلة شيان ، ودعاهم إلى أن ينصروه قال له سيد من ساداتهم : إلام تدعوننا يا أخا قريش ؟ فتلا رسول الله عليهم هذه الآية ، فقال الرجل : دعوت - والله - إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال ، ولقد أفك قوم كذبوك ، وظاهروا عليك ^(١) .

العدل

هذه الصفة من أعم الصفات وأشملها ، فعناها الاعتدال في كل شيء ، وهى تتضمن جميع أصول الفضائل ؛ لأن الفضيلة وسط بين رذيلتين : فالشجاعة - مثلاً - وسط بين الجبن والتهور ، وتناول الطيبات مما أحل الله وسط بين الحرمان الذى يفرضه بعض المغالين على أنفسهم كى يهدبوها - زعموا - بالتعذيب ، وبين الإسراف ، وتناول ما يحل ... وهكذا .

وقد عرضت فى مناسبة سبقت للعدل بمعناه العام ، وذكرت أنه ميزان الله فى الأرض .

وهنا أبين نظر القرآن الكريم إليه بمعناه الخاص ، وهو المعنى المشهور عند جمهرة الناطقين بالعربية .

(١) أفك : كذب ، ومصدره الأفك . وظاهروا عليه : عاونوا عليه أعداءه .

فيمكن أن نقول : أن المراد بالفحشاء في هذه الآية الزنا ، والبخل الشديد ، وقد تحدثت فيما سبق عن كبيرة الزنا ، وما يترتب عليها من أضرار تتصل بالصحة وبالعرض ، وباختلاط الأنساب . والحق أن الزنا إذا شاع في بيئة كان من أقوى المعاول في هدم كيانها الأخلاق ، فتكثر الأمراض ، وتختلط الأنساب ، وتختل القيم ، والزانية محتقرة حتى عند الذي فجر بها ، وهى في نظر المجتمع - أى مجتمع كان - مهينة مبتذلة ، وإن تودد إليها المتوددون « وقل ما يقبل رجل - وإن كان فاجراً - أن يتزوج من زانية » أو يربط حياته بها .

ولقد كان العرب في جاهليتهم يأنفون من هذه الفاحشة فندرت بين الحرائر وشاعت بين الإماء اللاتي كن يرفعن على بيوتهن الرايات للاهتمام بها إليهن ، ولذلك قالت هند بنت أبي سفيان لما عاهد النبي - ﷺ - النساء ، وكان في عهده - كما جاء في الآية الكريمة - ألا يزينن - قالت هند - وهل تزنى الحرة ؟
ومن أمثال العرب المشهورة : تجوع الحرة ولا تأكل بشديها - أى لا تكون الحرة مرضعة ، فجدير بها ألا تزنى .

أما البخل - وبخاصة البخل الذى يصل إلى درجة الشح - فهو داء من أدواء المجتمعات « وقد ألمحت إلى أضراره في الكلمة السابقة التى شرحت فيها معنى كلمة الإحسان الواردة في هذه الآية . وأضيف إلى ذلك أن البخل سوء ظن بالله ، ونتيجة بغض المجتمع ، وحب زائد للمال ، والبخل يحرم نفسه ، وأهله قبل أن يحرم الآخرين ، ولذلك يكون الحقد عليه من أولاده وزوجه وأهله بالغاً أشده ، ويوسعونه احتقاراً وازدراء ، فكيف - إذاً - ستصور مجتمعاً سليماً سعيداً يسود بين أفراده الحقد والاحتقار .

حَقُّهُ^(١) . ﴿فَآتَ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ
لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(٢) .
فهو الحق إذًا ، لا سبيل إلى إنكاره ، ولا مناص من أدائه ،
ولا خير من التقصير فيه ، بل هو الخير ، ومعه الفوز والفلاح .
وكما أنه سبيل الفوز في الآخرة ، هو - أيضاً - سبيل السعادة في
الدنيا ، فبأداء هذه الحقوق يتوَادُّ الناس ويتراحمون ، ويسود بينهم
الوفاق والوثام ، وتصفو نفوسهم من الحقد والحسد .
وإذا كان همُّ الإنسان أن يعيش لنفسه ، فلا بد أنه سيفقد أهم
أسباب السعادة في هذه الحياة ، فشعور الإنسان بمودة الآخرين -
وبخاصة ذوى قرابته - والتفافهم حوله عند حاجته إليهم ،
وتعاطفهم معه حين يمسه الضر ، ومشاركتهم له في مسراته
وأفراحه . كل هذه ألوان من السعادة النفسية يقدرها من صفت
وجداناتهم ، ورقت عواطفهم ۝ وسمت مشاعرهم .
ولا يشك عاقل في أن ما أصاب الإنسانية من قلق وهموم ،
ومن اضطراب في الحياة ، وكراهة في العيش يرجع - فيما يرجع -
إلى تفكك الروابط بين الناس وإلى تقطع الشائج بين ذوى
القربات ، وإلى ما يترتب على ذلك من أحقاد وعداوات .
ولذلك كان الإسلام مرشد الإنسان إلى أهم وسائل السعادة
حين شرع التكافل الاجتماعى ، وجعل - بذلك - للفقير نصيباً فى

(١) الاسراء - من الآية ٢٦ .

(٢) الروم - الآية ٣٨ .

يقول محمد بن دانيال المتوفى سنة ٦٠٨ هـ :
يُعنى البخيل يجمع المال مدته
وللحوادث والأيام ما يدع
كدودة القز ما تبنيه يهدمها
وغيرها بالذى يبنيه يتفجع
ويقول أمير الشعراء أحمد شوقي :
ولم أر مثل جمع المال داء
ولا مثل البخيل به مصاباً
فلا تقتلك شهوته وزنها
كما تزن الطعام أو الشرابا

المنكر

وهو كل ما تنكره العقول السليمة ، ويدخل فيه القتل والسرقة
والكذب والخيانة ، وخلف الوعد ، ونقض العهد ، والغدر والبذاء
والمكر والخديعة وكثير غيرها .
وكلها رذائل اجتماعية ، تفسد حياة الناس الخاصة والعامة ،
وتُجِلّ المجتمع في مكان فاسد الهواء ، كدير الماء ، مَرّ الثمرات ، إن
عاش فيه الناس يوماً ، فلا يستطيعون أن يعيشوا فيه أبد الدهر ..
وحسبك فساداً في المجتمع ألا يثق أحد بأحد ، وألا يأمن
إنسان لا على نفسه ، ولا على ماله ، ولا على عرضه ، ولا على
دينه .

بل إن رذيلة واحدة من هذه الرذائل كفيلة - إذا فشلت في
المجتمع - أن تحيل نهاره ليلاً ، وصفوه كدرأ ، وسعاده شقاء .

آية في القرآن للخير والشر ، ولو لم يكن فيه غير هذه الآية الكريمة لكفت في كونه تبياناً لكل شيء وهدى .

ولما علم أبوطالب عم النبي بنزول هذه الآية جاء لمجتمع قريش وقال : يا معشر قريش اتبعوا ابن أخي ترشدوا ، ولئن كان صادقاً أو كان كاذباً فإنه ما يأمركم إلا بمكارم الأخلاق .

ويروى أن النبي - ﷺ - حين عرض نفسه على قوم من قبيلة شيان ، ودعاهم إلى أن ينصروه قال له سيد من ساداتهم : إلام تدعوننا يا أخا قريش ؟ فتلا رسول الله عليهم هذه الآية ، فقال الرجل : دعوت - والله - إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال ، ولقد أفك قوم كذبوك ، وظاهروا عليك ^(١) .

العدل

هذه الصفة من أعم الصفات وأشملها ، فعناها الاعتدال في كل شيء ، وهي تتضمن جميع أصول الفضائل ؛ لأن الفضيلة وسط بين رذيلتين : فالشجاعة - مثلاً - وسط بين الجبن والتهور ، وتناول الطيبات مما أحل الله وسط بين الحرمان الذي يفرضه بعض المغالين على أنفسهم كي يهدبوها - زعموا - بالتعذيب ، وبين الإسراف ، وتناول ما يحل ... وهكذا .

وقد عرضت في مناسبة سبقت للعدل بمعناه العام ، وذكرت أنه ميزان الله في الأرض .

وهنا أبين نظر القرآن الكريم إليه بمعناه الخاص ، وهو المعنى المشهور عند جمهرة الناطقين بالعربية .

(١) أفك : كذب ، ومصدره الأفك . وظاهروا عليه : عاونوا عليه أعداءه .

على الخلق ، بل ربما على النفس أيضاً فقد يومها أنه ذو بطش وقوة ، وقد يومها أنه متفرد بمزايا حُرْمها الآخرون .

ولا شك أنه من الرذائل التي تستبجها العقول ، وتنكرها الفطر ، بل ربما كان من أخطرها وأقبحها ، فأثر البغى فيما يقوم بين الدول من حروب تأكل الأخضر واليابس معروف غير مجهول . وأثره في اضطراب الحياة ، وزعزعة الأمن ، والتخلف الاقتصادى والعلمى والاجتماعى في الشعوب التي تمنى بدول باغية اعتدت على استقلالها ، واستعمرت أرضها ، وساستها بالحديد والنار . أقول : أثره في كل ذلك لا ينكره إلا مدخول في عقله ، مصاب في بصيرته ، متهم في إنسانيته .

ولقد شاهدنا - ولازلنا نشاهد - ما يفعله البغى بالكرامة الإنسانية ، وبالسلم العالمى ، وبالشعوب التي لا تملك القوة التي ترد الباغى .

ومن عجب أن تدعى بعض الشعوب ، وحكامها أنها متقدمة ، ذات حضارة ورقى ، ثم تبارك الطغيان ، وتؤيد البغى ، وتعين على الإفساد فى الأرض .

والمال والقوة ، والتقدم العلمى ليست مقاييس الرقى والتقدم ، وإنما المقياس الحقيقى أن تكون مع كل هذه ضماير تنكر الظلم ، وعواطف كريمة نحو بنى الإنسان ، تستنكر البغى ، ثم أعمال جادة حازمة ترفع يد الظالم الباغى ، وترد لذوى الحقوق حقوقهم . وما يشيع السكينة فى نفوس المؤمنين ، ويرد الطمأنينة إلى قلوب المظلومين أن القرآن الكريم أوعده ووعد الحق - أن عاقبة البغى وخيمة ، وأنها ستعود على الباغى ، يقول تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا

البخيل يحقد علي المجتمع فيمسك يده عن المعاونة في الخير ،
ويحجم عن تفريج كُرب المكروبين « والمجتمع يحقد عليه لأنه لم
يعدل بالمال شيئاً ، لا صلة القرابة ، ولا الأخوة في الدين ، ولا
الأخوة في الإنسانية .

وقد روى أن رجلاً وفد على معاوية بن أبي سفيان الخليفة
الأموي ، وقال له : أعطني بالرحم التي بيني وبينك ، فقال له
معاوية : وأى رحم بيننا ؟ قال الرجل : رحم آدم ، فقال معاوية :
رحم بحفوة ، والله لأكونن أول من وصلها .

هكذا كان يفهم صحابة رسول الله أن الإنسانية رحم بين
أبنائها ، وأن اجتماع الرجل مع الرجل في البتوة لآدم كاجتماعه معه
في البتوة لأبيه الأدنى .

أما البخيل فلا يعترف برحم ، ولا يعرف له حرمة ، بل لا
يعترف بحق نفسه عليه ، فتراه أشعث أغبر ، مكتئب النفس ،
زرى الهيئة ، وهو في الآخرة من الخاسرين وصدق الله العظيم :
﴿ومن يوقْ شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾^(١) .

وبين الرسول - ﷺ - أثر الشح في تقويض بنيان الجماعة
الإنسانية ، وإشاعة الفساد فيها ، فيقول : (اتقوا الظلم فإن الظلم
ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان
قبلكم : حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم)^(٢) .
قلت إن أول من يضر البخيل نفسه ، وقد أكثر الشعراء من
صياغة هذا المعنى .

(١) سورة الحشر - الآية ٩ .

(٢) أخرجه مسلم .

الفصل الثالث

نماذج إنسانية يشير إليها القرآن الكريم

أكثر الآيات التي ورد فيها ذكر الإنسان كان نزولها بسبب خاص ، وفي شخص معين ، وهذا الشخص هو في الحقيقة نموذج إنساني ، تتكرر سماته التي ذكرتها الآية في كثيرين .

فمثلاً ذكر المفسرون أن قوله تعالى : ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّا غَافٍ﴾ (١) نزل في أبي جهل ، فهذا الطاغية بسبب الغنى ليس أباً جهل وحده ، ولكن أمثاله كثيرون في كل زمان ، وفي كل مكان ، فهو نموذج إنساني لهذا الصنف من الناس الذين يطغهم الغنى ، ويبطّروهم الثراء .

وقوله تعالى : ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ﴾ (٢) نزل في عيَّاش بن أبي ربيعة ، فهو أيضاً نموذج لكثيرين غيره ، ينسون الله حين تقبل عليهم الدنيا ، فإذا مسَّهم الضَّرَّ يشسوا وقنطوا ، وهذا هو تمام الآية : ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا﴾ .
وقوله تعالى : ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا... الْآيَاتُ﴾ نزل في الأخنس بن شريق ، وقد قدمت القول في هذه الآيات .
وهكذا . وقد يشار إلى (النموذج) في القرآن الكريم بعبارة أخرى

(١) سورة العلق - الآيتان ٦ ، ٧ .

(٢) سورة الاسراء - الآية ٨٣ .

آية في القرآن للخير والشر ، ولو لم يكن فيه غير هذه الآية الكريمة لكفت في كونه تبياناً لكل شيء وهدى .

ولما علم أبوطالب عم النبي بنزول هذه الآية جاء لمجتمع قريش وقال : يا معشر قريش اتبعوا ابن أخى ترشدوا ، ولئن كان صادقاً أو كان كاذباً فإنه ما يأمركم إلا بمكارم الأخلاق .

ويروى أن النبي - ﷺ - حين عرض نفسه على قوم من قبيلة شيان ، ودعاهم إلى أن ينصروه قال له سيد من ساداتهم : إلام تدعوننا يا أخا قريش ؟ فتلا رسول الله عليهم هذه الآية ، فقال الرجل : دعوت - والله - إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال ، ولقد أفك قوم كذبوك ، وظاهروا عليك ^(١) .

العدل

هذه الصفة من أعم الصفات وأشملها ، فعناها الاعتدال في كل شيء ، وهى تتضمن جميع أصول الفضائل ؛ لأن الفضيلة وسط بين رذيلتين : فالشجاعة - مثلاً - وسط بين الجبن والتهور ، وتناول الطيبات مما أحل الله وسط بين الحرمان الذى يفرضه بعض المغالين على أنفسهم كى يهدبوها - زعموا - بالتعذيب ، وبين الإسراف ، وتناول ما يحل ... وهكذا .

وقد عرضت فى مناسبة سبقت للعدل بمعناه العام ، وذكرت أنه ميزان الله فى الأرض .

وهنا أبين نظر القرآن الكريم إليه بمعناه الخاص ، وهو المعنى المشهور عند جمهرة الناطقين بالعربية .

(١) أفك : كذب ، ومصدره الأفك . وظاهروا عليه : عاونوا عليه أعداءه .

غير أن الرجل شديد الحرص على أن يصل إلى هدفه ، ويحقق
أمنيته فيعاود الرسول بالسؤال والالاحاح فيه ، ويقول : (والذى
بعثك بالحق لئن دعوت الله فرزقنى مالا لأعطين كل ذى حق
حقه) ، فيستجيب له الرسول « ويدعوه بما أراد : (اللهم ارزق
ثعلبة مالا) .

واستجاب الله - سبحانه - دعوة رسوله ، ورزق الرجل مالا ،
فأتخذ غنماً ، فنمت نمواً عظيماً حتى ضاقت عليه المدينة فتنحى
عنها ، ونزل وادياً من أوديتها ، وجعل يصلى الظهر والعصر فى
جماعة « ويترك ما سواهما ، ثم نمت غنمه وكثرت ، فترك الصلاة إلا
الجمعة ، وما زالت تنمو وتكثر حتى ترك الجمعة أيضاً .

وقد أخبر رسول الله - ﷺ - بخبره ، وانهى إليه ما صارت
إليه حاله ، فقال : (يا ويح ثعلبة . يا ويح ثعلبة . يا ويح ثعلبة)
ثلاث مرات .

ولما نزلت آية الزكاة بعث رسول الله - ﷺ - رجلين من
المسلمين ، وكتب لهما كتاباً يبين فيه كيف يأخذان الزكاة ، فخرجا
حتى أتيا ثعلبة ، فسألاه زكاة ماله ، وأقرآه كتاب رسول الله «
فقال : ما هذه إلا جزية ، ما هذه إلا أخت جزية ، ما أدري ما
هذا ؟ وطلب إليهما العودة إليه عندما يفرغان من أخذ زكاة بعض
المسلمين ، فلما رجعا إليه قال : أرونى كتابكما ، فقرأه ، فقال :
ما هى إلا جزية ، انطلقا حتى أرى رأى ، فلما أتيا النبى - ﷺ -
قال - قبل أن يكلمهما : (يا ويح ثعلبة) ، فأخبراه بالذى كان من
ثعلبة ، فأنزل الله - عز وجل :

﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ
الصَّالِحِينَ . فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ .

النَّاسُ إِنَّمَا بَغِيكُم عَلَى أَنْفُسِكُمْ»^(١) .

أى وبال البغى ، وسوء عاقبته ، وما فيه من شر وظلم يلحق بالباغين ، وبمن يعاونهم على بغيهم .

وقد جاء فى القرآن الكريم الوعيد بعقوبة دنيوية على ثلاث رذائل : هى البغى كما تفيده هذه الآية الأخيرة ، ونقض العهد ونكثه كما جاء فى قوله تعالى : ﴿لَنْ نَكْثَ فَإِنَّا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ﴾^(٢) ، والمكر السيئ ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾^(٣) .

ونحن موقنون أن وعيد الله سبحانه حق ، وأنه لا بد واقع ، ولا يَغُرَّنَّ قوماً أن وعيد الله قد يبطىء ، فإن الله - عز وجل - يهمل ولا يهمل ، وأنه سبحانه يملئ للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته .

(١) سورة يونس - الآية ٢٣ .

(٢) سورة الفتح - الآية ١٠ .

(٣) سورة غاطر - الآية ٤٣ .

وتارة تجيء آياتها بأسلوب التبعيض : ﴿ومنها من يقول الذن
لى ولا تفتنى ألا فى الفتنة سقطوا وإن جهنم محبطة بالكافرين﴾ (١) .
﴿ومنها الذين يؤذون النبى ويقولون هو أذن قل أذن خير لكم
يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ورحمة للذين آمنوا منكم والذين يؤذون
رسول الله لهم عذاب أليم﴾ (٢) .

﴿ومنها من يلمزك فى الصدقات فإن أعطوا منها رضوا وإن لم
يعطوا منها إذا هم يسخطون﴾ (٣) .

ومن هذه الطائفة هذه الآيات الكريمة التى نزلت فى شأن ثعلبة
ابن حاطب (٤) ، وقد وصفت الآيات هذا المنافق بجملة من أسوأ
الصفات ، وأشدّها شناعة ، وأقبحها مظهراً وخبراً ، وآلمها عاقبة .
فهو قد عاهد الله تعالى وتقدست أسماؤه ، وأقسم على هذا
العهد أن يتصدق ، وأن يكون من الصالحين لو آتاه الله من فضله ،
ثم خاس بهذا العهد ، وأخلف الله ما وعده ، وهو قد تولى وأعرض
عن تكاليف الشرع وأوامره ، ولم يحتجب نواهيه : كذب وبخل وأبى
أن يؤدى حقوق الله ، وحقوق عباده ، وليس فى صفات المنافقين
أسوأ من هذه الصفات ، والرسول - ﷺ يقول : (ثلاث من كن
فيه فهو منافق ، وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم : إذا حدث
كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا التمتحن خان) .

وقد كذب ثعلبة فيما عاهد عليه ، وأخلف وما وفى بعهد الله ،

(١) الآية ٤٩ من سورة التوبة .

(٢) الآية ٦١ من سورة التوبة .

(٣) الآية ٥٨ من سورة التوبة .

(٤) ذكر المفسرون بعض الأسباب الأخرى للنزول ، ولكن أكثرهم ابتدأ بهذا السبب ،
وبعضهم اقتصر عليه كما فعل النيسابورى فى (تفسير غرائب القرآن ورغائب
الفرقان) ، وكما فعل الجلال السيوطى وابن كثير .

آية في القرآن للخير والشر ، ولو لم يكن فيه غير هذه الآية الكريمة لكفت في كونه تبياناً لكل شيء وهدى .

ولما علم أبوطالب عم النبي بنزول هذه الآية جاء لمجتمع قريش وقال : يا معشر قريش اتبعوا ابن أخي ترشدوا ، ولئن كان صادقاً أو كان كاذباً فإنه ما يأمركم إلا بمكارم الأخلاق .

ويروى أن النبي - ﷺ - حين عرض نفسه على قوم من قبيلة شيان ، ودعاهم إلى أن ينصروه قال له سيد من ساداتهم : إلام تدعوننا يا أخا قريش ؟ فتلا رسول الله عليهم هذه الآية ، فقال الرجل : دعوت - والله - إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال ، ولقد أفك قوم كذبوك ، وظاهروا عليك ^(١) .

العدل

هذه الصفة من أعم الصفات وأشملها ، فعناها الاعتدال في كل شيء ، وهي تتضمن جميع أصول الفضائل ؛ لأن الفضيلة وسط بين رذيلتين : فالشجاعة - مثلاً - وسط بين الجبن والتهور ، وتناول الطيبات مما أحل الله وسط بين الحرمان الذي يفرضه بعض المغالين على أنفسهم كي يهدبوها - زعموا - بالتعذيب ، وبين الإسراف ، وتناول ما يحل ... وهكذا .

وقد عرضت في مناسبة سبقت للعدل بمعناه العام ، وذكرت أنه ميزان الله في الأرض .

وهنا أبين نظر القرآن الكريم إليه بمعناه الخاص ، وهو المعنى المشهور عند جمهرة الناطقين بالعربية .

(١) أفك : كذب ، ومصدره الأفك . وظاهروا عليه : عاونوا عليه أعداءه .

وأن نعى جيداً صفات الألوهية .

وظاهر هذه الآيات أن نقص العهد ، وخلف الوعد بورثان النفاق ، فعلى المسلم أن يبالغ في الاحتراز عنهما ، فإذا عاهد الله في أمر فليجتهد في الوفاء به ، وقد ذهب الحسن البصري - رحمه الله - إلى أن ذلك يوجب النفاق لا محالة .

وقد روى عن النبي - ﷺ : (اضمنوا لي ستاً أضمن لكم الجنة : إذا حدثتم فلا تكذبوا ، وإذا وعدتم فلا تخلفوا ، وإذا ائتمتم فلا تخونوا ، وغضوا أبصاركم ، وكفوا أيديكم ، واحفظوا فروجكم)^(١) .

. وثعلبة رجل شقي ، اقترن اسمه في التاريخ الإسلامي بهذه النقائص القوائل ، وهو رجل منافق ، حكم الله عليه بالنفاق الثابت الدائم إلى يوم أن يلقى مصيره المحتوم ، وقد مات الرجل في عهد عثمان بن عفان - رضى الله عنه - مات على النفاق ، فكان خبر السماء معجزاً ، لأنه أخبر عن غيب كان حقيقة في حياة الرسول ، وظل حقيقة في نفس هذا المنافق حتى مات .

وكم من الناس الذين عاشوا قبل أن يضيء نور الإسلام آفاق الدنيا ، كم منهم كان حقيقاً باسم ثعلبة ، على ما عرفنا من رذائله . الحق أن هذا صنف من الناس يوجد في كل زمان ، وفي كل مكان ، وما ثعلبة ورفاقه إلا نماذج من هذا الصنف .

يقسو العيش على رجل من الناس ، وتضييق عليه مذاهب الحياة ، ويلقى من مكاره الحاجة ومتاعبها ما يجعله يتوجه إلى ربه ، يتوسل إليه بالعمل الصالح أن ييسط له في الرزق ، ويوسع عليه في

(١) رواه أحمد بن حنبل في مسنده .

فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون . ألم يعلموا أنَّ الله يعلم سرهم ونجواهم وأنَّ الله علَّام الغيوب ﴿١﴾ .

هذه الآيات الكريمة من سورة (التوبة) ، وهي من أواخر السور التي نزلت على رسول الله - ﷺ - وتسمَّى سورة (براءة) ؛ لأنَّ الله سبحانه بدأها ببراءته ، وببراءة رسوله من المشركين .

وكان ابن عباس - رضى الله عنهما - يسميها : (الفاضحة) ؛ لأنها فضحت المنافقين ، وأظهرت ما كانوا يخفون في أنفسهم من ألوان النفاق ، قال ابن عباس عن هذه السورة : مازالت تنزل فيهم ، وتنال منهم حتى خشيْنَا ألا تدع أحداً .

وقد صدق ابن عباس ، فقد كشفت السورة عن كثير من جهالات المنافقين ، تارة تجيء آياتها بأسلوب العموم : ﴿ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة﴾ ولكن كره انبعاثهم فنبطهم وقيل أعدوا مع القاعدين ﴿٢﴾ .

﴿يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبهم بما في قلوبهم﴾ ﴿٣﴾ .

﴿يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم وهموا بما لم ينالوا وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله﴾ ﴿٤﴾ .

(١) الآيات ٧٥ — ٧٨ من سورة التوبة .

(٢) الآية ٤٦ من سورة التوبة .

(٣) من الآية ٦٤ من سورة التوبة .

(٤) من الآية ٧٤ من سورة التوبة .

وقد تعدل الدنيا فيمسي غنيها

فقيراً ويغنى بعد بؤس فقيرها

على أن هؤلاء قد يفيقون ، أو يفيق بعضهم من الغفلات حين تنزل بهم الكواثر فتأتى على الأخضر واليابس مما جمعوا ، أو حين يكشف الله سترهم ، ويحلى للناس حقائقهم ، كما فعل ثعلبة حين ضاقت به الأرض ، وضافت به نفسه ، فلجأ إلى رسول الله ﷺ ثم إلى صحابته ، يلتمس الإقالة من العثرة ، وما أشك في أنه لم يكن صادقاً في هذه التوبة ، والا لقبليها الله ، وقبلها رسوله ، فليحذر الذين يلجأون إلى الله في الشدائد بظواهر أعمالهم وأقوالهم ، ولا تزال نفوسهم على ما كانت عليه من النفاق والشقاق ، ورذائل الأخلاق .

نسأل الله تعالى أن يحنينا المزالق ، وأن يثبت في قلوبنا حبه «
وحب رسوله » وحب الخير للقريب والبعيد ، وأن يغرس في نفوسنا مكارم الأخلاق « وأن يجعلنا من الذين قال فيهم :
﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾^(١) .

وحسبنا الله ونعم الوكيل .

(١) سورة البقرة - الآية ٢٠٧ .

وخان ما ائتمنه الله عليه من شرائعه وأوامره . خانه في السر فكان قلبه على غير ما ظهر على لسانه ، ولذلك جازاه الله سبحانه بأن جعل النفاق ملازماً لقلبه حتى مات عليه ^(١) .

وقد وفد ثعلبة على رسول الله - ﷺ - بعدما علم بجزول الآيات يقدم صدقته ، فأخبره الرسول بأن الله منعه من قبولها ، وكذلك رفض أبي بكر وعمر وعثمان - رضي الله عنهم - أبوا جميعاً أن يقبلوا صدقة لم يقبلها رسول الله ، فقال ثعلبة من الغم ، وضيق الصدر ، والذل والندم ما كان جديراً به .

وقد عللت الآية الكريمة هذه العقوبة : ﴿فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون﴾ . ثم أشارت الآية الأخرى إلى غفلتهم وجهلهم ، وتوهمهم أن الله لا يعلم سرهم ونجواهم : ﴿ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم وأن الله علام الغيوب﴾ ، والسّر ما تنطوي عليه صدورهم ، والنجوى ما يحدث به بعضهم بعضاً فيما بينهم ، وكأنهم لو كانوا على يقين من ذلك ما أخلفوا الله ما وعدوه ، وما كذبوا عليه ، وعلى رسوله ، ولما تجرّءوا على النفاق .

والله علام الغيوب ، يعلم ما في الضمائر ، وما تخفى السرائر ، فكيف غاب عنهم ذلك ؟ وكيف توهموا - وهم يضمرون غير ما يعلنون - أن ذلك يخفى على علام الغيوب ؟!

ومن هنا جاء الاستفهام الإنكارى يوجه إليهم أقسى ألوان التوبيخ والتفريع ، ويهيب بعقولهم أن تستيقظ من غفلة النفاق ،

(١) وهم بعض المفسرين كالقرطبي حيث خلط بين ثعلبة بن حاطب ، وحاطب بن أبي بلتعة ، فوصف ثعلبة بأنه أسلم وحسن إسلامه ، وشهد الله له ورسوله بالإيمان ، وإنما هذا هو حاطب كما ذكر ذلك القرطبي في تفسير أول سورة الممتحنة .

السيرة النبوية : أبو محمد عبد الملك بن هشام الحميري (٢١٣ ، أو ٢١٨ هـ)

تهذيب الأخلاق : لأبي علي أحمد بن محمد المعروف بابن مسكويه (ت ٤٢١ هـ)

إحياء علوم الدين : لأبي حامد الغزالي (ت ٥٠٥ هـ)
مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين : لمحمد بن أبي بكر
المعروف بابن قيم الجوزية (ت ٧٥١ هـ)
الموافقات في أصول الشريعة : لأبي إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي (ت ٧٩٠ هـ)

الإسلام يتحدى : وحيد الدين خان الباكستاني
أصول علم النفس وأثره في التربية والتعليم : الأستاذ أمين مرسى قنديل
تطور الشعر الديني : الدكتور مصطفى زيور
تطور الشعر الديني عند الطفل والمراهق : الدكتور عبد المنعم عبدالعزيز
الدين والعلم : المشير أحمد عزت باشا
الغرائز وعلاقتها بالتربية : الشيخ محمد الغمراوي بك

أبحاث ومقالات في المجالات والصحف العربية

العيش . يقرن ذلك بالتضرع ، وبالعزم المصمم على أن يعطى كل
 ذى حق حقه . يعطف على أقاربه ، ويحنو على اليتيم والمسكين ،
 ويؤدى حق الله فى ماله ، حتى إذا أزال الله غمته ، ووسع عليه فى
 الرزق نسى ما كان عليه بالأمس ، ومنع حق الله ، وحق الأقارب
 والفقراء فى ماله ، واشتد به الحرص ، وأوثق الشح يديه فما بعدهما
 بخير ، ونزع الجشع الرحمة من قلبه ، فما يحس بحاجة محتاج ، بل
 نسى الله سبحانه : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لَجْنِبْهُ أَوْ قَاعِدًا
 أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَانٌ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ ﴾ (١) .
 ثم تراه يختلق المعاذير حتى يكون منها أن هذا المال من جهده
 وكسبه ، ولا فضل لأحد عليه فيه ، كما أخبر القرآن الكريم : ﴿ وَإِذَا
 مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرُّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى
 عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنِّ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٢) .

إن الكريم ليخفى عنك علته

حتى تراه غنياً وهو بمجهود

وللبخيل على أمواله عِللٌ

زرق العيون عليها أوجه سود

وليس فى خدع الشيطان شر من هذه الخدع ، ولا فى لؤم
 الأخلاق أسوأ من هذا الخلق ، وشر ما يبتلى به هؤلاء الغفلة ،
 وطول الأمل ، فكأنهم يجهلون أن كل مال عرضة للزوال ، وأن كل
 نعمة عرضة للآفات ، وأنه لا يدوم غنى ولا فقر ، ولا تستقر نعماء
 ولا بؤس .

(١) سورة يونس - الآية ١٢ .

(٢) سورة الزمر - الآية ٤٩ .

الباب الرابع : وفيه ثلاثة فصول

- ١ — السلوك الأخلاقي للانسان كما ١٣٩
- يعرضه القرآن
- ٢ — الضمير ١٦٥
- ٣ — تربية الإرادة ١٧١

الباب الخامس : وفيه ثلاثة فصول

- ١ — التَّحَلِّي بالفضائل — العدل ١٧٩
- الاحسان — العفو — إيتاء ذي القربى
- ٢ — الفحشاء — المنكر — البغي ١٩٧
- ٣ — نماذج إنسانية يشير إليها ٢٠٤
- القرآن الكريم

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم .
جامع البيان عن تأويل آي القرآن : محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ)
الكشاف عن حقائق التنزيل : جار الله محمود بن عمر الزمخشري (ت ٥٣٨هـ)
المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز : عبدالحق بن أبي بكر المعروف بابن عطية (ت ٥٤٢هـ)
مفاتيح الغيب (التفسير الكبير) : محمد بن عمر فخر الدين الرازي (ت ٦٠٦هـ)
الجامع لأحكام القرآن : محمد بن أحمد المعروف بالقرطبي (ت ٦٧١هـ)
مدارك التنزيل وحقائق التأويل : عبدالله بن أحمد النسفي (ت ٧٠١هـ)
تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان : نظام الدين الحسن بن محمد بن حسن القمي النيسابوري (ت . بعد ٨٥٠هـ)
لباب النقول في أسباب النزول : جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ)
إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم : محمد بن محمد المعروف بأبي السعود (ت ٩٨٢هـ)
تفسير المنار : السيد محمد رشيد رضا (ت ١٣٥٤هـ)
البرهان في علوم القرآن : بدر الدين محمد بن عبدالله الزركشي (ت ٧٩٤هـ)
بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز : محمد بن إبراهيم مجد الدين الفيروز أبادي (٧٢٩ - ٨١٦هـ)
الجامع الصحيح : لأبي عبدالله محمد بن أبي الحسن البخاري (ت ٢٥٦هـ)
الجامع الصحيح : لمسلم بن الحجاج (ت ٢٦١هـ)
المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج : لهي الدين البنوي (ت ٦٧٦هـ)
فتح الباري بشرح صحيح البخاري : لأحمد بن علي المعروف بابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ)

الدكتور محمد محمود عمارة
الدكتور محمد تنوقي الفنجري
الدكتور حسن ضياء الدين عتر
حسن أحمد عبد الرحمن عابدين
الأستاذ محمد عمر القصار
الأستاذ أحمد محمد جمال
الدكتور السيد رزق الطويل
الأستاذ حامد عبد الواحد
عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني
الدكتور حسن الشرقاوي
الدكتور محمد الصادق عفيفي
اللواء الركن محمد جمال الدين محفوظ
الدكتور محمود محمد بابلي
الدكتور علي محمد نصر
الدكتور محمد رفعت العوضي
د. عبد العليم عبد الرحمن خضر
الأستاذ سيد عبد المجيد بكر
الأستاذ سيد عبد المجيد بكر
الأستاذ سيد عبد المجيد بكر
الأستاذ محمد عبد الله فودة
الدكتور السيد رزق الطويل
د. محمد عبد الله الشرقاوي
د. البدر اوي عبد الوهاب زهران
الأستاذ محمد ضياء شهاب
الدكتور نبيه عبد الرحمن عثمان
الدكتور سيد عبد الحميد مرسي
الأستاذ أنور الجندي
الدكتور محمد أحمد البابلي
اسماء عمر فدعق
الدكتور أحمد محمد الخراط

- ٢٦- تربية النشء في ظل الاسلام
- ٢٧- مفهوم ومنهج الاقتصاد الاسلامي
- ٢٨- وحي الله
- ٢٩- حقوق الانسان وواجباته في القران
- ٣٠- المنهج الاسلامي في تعليم العلوم الطبيعية
- ٣١- القرآن كتاب أحكمت آياته [٢]
- ٣٢- الدعوة في الاسلام عقيدة ومنهج
- ٣٣- الاعلام في المجتمع الاسلامي
- ٣٤- الالتزام الديني منهج وسط
- ٣٥- التربية النفسية في المنهج الاسلامي
- ٣٦- الاسلام والعلاقات الدولية
- ٣٧- العسكرية الاسلامية ونهضتنا الحضارية
- ٣٨- معاني الأخوة في الاسلام ومقاصدها
- ٣٩- النهج الحديث في مختصر علوم الحديث
- ٤٠- من التراث الاقتصادي للمسلمين
- ٤١- المفاهيم الاقتصادية في الاسلام
- ٤٢- الأقليات المسلمة في أفريقيا
- ٤٣- الأقليات المسلمة في أوروبا
- ٤٤- الأقليات المسلمة في الأمريكتين
- ٤٥- الطريق إلى النصر
- ٤٦- الاسلام دعوة حق
- ٤٧- الاسلام والنظر في آيات الله الكونية
- ٤٨- دحض مفتريات
- ٤٩- المجاهدون في فطاني
- ٥٠- معجزة خلق الانسان
- ٥١- مفهوم القيادة في إطار العقيدة الاسلامية
- ٥٢- ما يختلف فيه الاسلام عن الفكر الغربي والماركسي
- ٥٣- الشورى سلوك والتزام
- ٥٤- الصبر في ضوء الكتاب والسنة
- ٥٥- مدخل إلى تحصين الأمة

الفهرست

الموضوعات	الصفحة
المقدمة	٥
الباب الأول : وفيه ثلاثة فصول	
١ — أحسن الحديث	١٩
٢ — وصف القرآن من آياته وصلة	٣٠
هذه الأوصاف بالانسان .	
٣ — وصف النبي للقرآن — شهادة	٤٠
بعض المشركين للقرآن — وصف	
المحدثين للقرآن .	
الباب الثاني : وفيه أربعة فصول	
١ — الانسان — كلمة القرآن في الانسان	٤٧
٢ — البرهان النفسي	٥٤
٣ — الانسان في الآية الأولى من القرآن	٦٦
٤ — ضلالة حذر منها القرآن	٩٧
الباب الثالث : وفيه فصلين	
١ — مقاصد القرآن الكريم	١٠١
٢ — صيانة الانسان من أهم مقاصد	
القرآن	١٠٦

طبع مطابع رابطة العالم الإسلامي - مكة المكرمة

الفهرست

الموضوعات	الصفحة
المقدمة	٥
الباب الأول : وفيه ثلاثة فصول	
١ — أحسن الحديث	١٩
٢ — وصف القرآن من آياته وصلة	٣٠
هذه الأوصاف بالانسان .	
٣ — وصف النبي للقرآن — شهادة	٤٠
بعض المشركين للقرآن — وصف	
المحدثين للقرآن .	
الباب الثاني : وفيه أربعة فصول	
١ — الانسان — كلمة القرآن في الانسان	٤٧
٢ — البرهان النفسي	٥٤
٣ — الانسان في الآية الأولى من القرآن	٦٦
٤ — ضلالة حذر منها القرآن	٩٧
الباب الثالث : وفيه فصلين	
١ — مقاصد القرآن الكريم	١٠١
٢ — صيانة الانسان من أهم مقاصد	
القرآن	١٠٦

الفهرست

الموضوعات	الصفحة
المقدمة	٥
الباب الأول : وفيه ثلاثة فصول	
١ — أحسن الحديث	١٩
٢ — وصف القرآن من آياته وصلة	٣٠
هذه الأوصاف بالانسان .	
٣ — وصف النبي للقرآن — شهادة	٤٠
بعض المشركين للقرآن — وصف	
المحدثين للقرآن .	
الباب الثاني : وفيه أربعة فصول	
١ — الانسان — كلمة القرآن في الانسان	٤٧
٢ — البرهان النفسي	٥٤
٣ — الانسان في الآية الأولى من القرآن	٦٦
٤ — ضلالة حذر منها القرآن	٩٧
الباب الثالث : وفيه فصلين	
١ — مقاصد القرآن الكريم	١٠١
٢ — صيانة الانسان من أهم مقاصد	
القرآن	١٠٦